د. ثابت الأحمدي

سيكولوجيا النظرية الهادوية في اليمن
قراءة في البنية النفسية للنظرية

تقديم : د . أحمد عبيد بن دغر

مركز نشوان الحميري
للدراسات والإعلام
Nashwan Alhemyari for Studies & Media

سيكولوجيا النظرية الهادوية في اليمن

د. ثابت الأحمدي

بسم الله الرحمن الرحيم

الكتاب: سيكولوجيا النظرية الهادوية في اليمن – قراءة في البنية النفسية للنظرية
الكاتب: د. ثابت الأحمدي

الناشر: مركز نشوان الحميري للدراسات والإعلام
الجمهورية اليمنية، هاتف: ٧٧٧١١٣٦٣٤ – ٧٧٧٠٣٣٣٢٢ البريد الإلكتروني:
info@nafsam.org، الموقع الالكتروني: www.nafsam.org
رقم الإيداع لدى فرع الهيئة العامة للكتاب م/مأرب (المكتبة العامة – مأرب):
(١١ / ٢٠٢١).
الطبعة: الأولى يناير ٢٠٢١م

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

سيكولوجيا النظرية الهادوية في اليمن

قراءة في البنية النفسية للنظرية

تأليف:
د. ثابت الأحمدي

الناشر:
مركز نشوان الحميري للدراسات والإعلام
٢٠٢١

الإهـــداء

إلى روح الزعيم العربي الخالد

جمال عبدالناصر رحمه اللّه

وإلى كل قطرة دم سفحت

في سبيل ٢٦ سبتمبر الخالد

الفهرس

إهداء.....(٤)

تقديم.....(٧)

مقدمة.....(٩)

مدخل .....(١١)

سيكولوجيا المعتقدات .....(١٣)

سيكولوجيا النظرية .....(٢٥)

العلويون والأمويون .....(٢٧)

العلويون والعباسيون .....(٢٨)

سيكولوجيا العدوان .....(٣١)

العدوان المرتد والفوضى المقدسة.....(٣٥)

سيكولوجيا الخوف .....(٦١)

جماعة في مجتمع .....(٦٧)

سيكولوجيا المنظر .....(٧١)

فوبيا النظرية الهادوية .....(٨٣)

خاتمة .....(٩١)

قائمة المصادر والمراجع .....(٩٥)

تقديم

بقلم: د. أحمد عبيد بن دغر

تشرفتُ أخي د. ثابت الأحمدي بقراءةِ كتابكم "سيكولوجيا النظرية الهادوية في اليمن". لقد أحسنتم اختيارَ موضوعِ البحثِ وتناولتموه من زوايا مختلفة، كما أنَّ مصادرَكم مهمّةٌ لدراسةِ هذه الظاهرة، وقد ذهبتُم من تعريفِ الظاهرةِ إلى شرحِ جوانبها، وأسبابِ وجودِها، وما أحدثتْه وتُحدثُه من انقسامٍ وعُنفٍ ورفضٍ للآخر، بما في ذلك الآخر القريب "الفرع"، وما تركتْه وتتركه مع كل دورةِ صراعٍ من دماءٍ ودمار.

توارثَ الأئمةُ نظرياتِهم في بيئةٍ استقبلتها مرات، وتكيّفت معها مرات أخرى، وأصبح لها أنصارٌ ومؤمنون وهم سندها ووقودها وعمادها، هذه البيئة تشربت بثقافةٍ لم يعد العقلُ يقبلها، ومن المؤكدِ أنَّ الدينَ الصحيحَ أيضًا يرفضُها.

إنها حالة سيكولوجية تسكنُ البعضَ من المجتمعِ بفعلِ التّراكم، يُمكنُ أن نطلقَ عليها "سيكولوجيا الأتباع"، ونلمسها في اندفاعهم القوي لتمكينِ الإمامِ من رقابهم، وحريتهم. إنهم ليسوا سوى أناس مُضلَّلين ويعلمون أنهم مواطنون من الدرجة الثانية، ومع ذلك يندفعون نحو الأئمة ويمتثلون أوامرَهم..!

سيكولوجيا الأتباع للإمام السيد، تستحق منكم ـ وأنتم فارسُ في هذا الميدان ـ بحثًا آخر، فالأئمةُ إنما يقاتلوننا بمن وقعوا تحت تأثيرِ عقيدتهم من العَامة الذين يُعمقون دونيّتَهم في المجتمعِ بدمائهم وأرواحهم، وعدًا بالجنة والرضَا من الخالقِ حد توهُّمهم. يقودهم "إمامٌ" يدعي كذبًا وبهتانًا مفاهيمَ وقيمًا ما أنزل الله بها من سُلطان.

هؤلاء لا يُقْبِلونَ على عبوديتِهم إلَّا لقابليّةٍ نفسيّةٍ تتصلُ بالوعي الفردي، وبالثقافةِ الجمعيّة عندهم، الثقافة التي من أركانها الدين كما عَرَفوه وعرَّفه لهم الأئمة. والمشكلةُ فيْ اليمن ـ كما خلصتُم إليها في خاتمةِ الكتاب ـ ثقافيّة، ولكنها بذاتِ الوقت في انبعاثها الأخيرِ اقتصادية وسياسية وانقسام في الصف الجمهوري، وعدم القدرة على احتواء التناقضَات.

بحثًا أراه ممكنًا ينيرُ للشبابِ طريقَهم، فيفهموا الإمامةَ كما فهمها النعمانُ والزبيريُّ وأحرارُ اليمن، وكما يفهمُها المقاتلون ضد الإمامةِ اليوم في مواقعِ الشّرف، بحثًا لا يتجه نحو دراسة سيكولوجيا الأئمة فحسب؛ بل يبحثُ في سيكولوجيا الأتباعِ والتأثيرِ غيرِ السّوي من الثقافةِ السّائدةِ على عُقولهم.

بحثُكم هذا يستحقُّ القراءة، ويرتقي لمستوى النقدِ في موضوعه، وفي مصَادره، وفي القيمةِ العلميّة التي يقدمُها في الظُّروفِ الراهنةِ في اليمن، وأنتم باحثٌ نعتزُّ به، يجتهدُ في ظروفٍ تُعاودُ خلالها الإمامةُ حضورَها بكل ما عُرف عن الإمامةِ من عُنفٍ وعنصريةٍ وعودةٍ للجهلِ والعبوديّة.

رئيس مجلس الشورى

الرياض، أكتوبر ٢٠٢٠م

مقدمة

تابعتُ الدراسات والمؤلفات التي صدرت عن الإمامة الهادوية خلال الخمسين سنة الماضية، وهي قليلة على أية حال، قياسًا إلى ما كان يجبُ أن يكون، وتنوعت هذه الدراساتُ من حيث تعاطيها مع النظرية الهادوية ما بين متناولٍ لها من منظور تاريخي، وهو الأغلب، وبين متناولٍ لها من منظور فكري، وآخر اجتماعي، وهكذا..

ولفت انتباهي خلو هذه الدراسات والمؤلفات من تناول الإمامة الهادوية من منظورٍ نفسي، سيكولوجي، وما كان ينبغي، فنظرية شيطانية كهنوتية كهذه يجب أن يتناولها الباحثون والمؤلفون من جميع جوانبها، لتتضح حقيقتها، وليكون الجمهور والرأي العام على بينة من هذا الكيان العنصري البغيض.

وبقدراتي المتواضعة في هذا المجال قررتُ أن أخوض غمارَ هذا البحر الذي ليس من تخصصي وإن كان من اهتمامي؛ بل واهتمامي الكبير من وقت مبكر، فكانت هذه المادة بهذه الصورة التي بين يدي القارئ، آملا أن تسد ولو جزءًا من حاجته العلمية؛ علما أني قد تناولت هذه الفكرة في كتابي الهادوية بين النظرية السياسية والعقيدة الإلهية الذي صدر قبل سنتين، إلا أنه كان تناولا عاجلا، وفي مبحثين صغيرين، ضمن مباحث الفصل الأول، وأحسستُ أن الفكرة لم تُشبع كما يجب، فبقيتْ في ذهني منذ ست سنواتٍ تقريبا؛ مقررًا أن أكملَ الفكرة في كتاب خاص بها. ومن قبيل وقع الحافر على الحافر كما يُقال، أتذكر أن الزميل العزيز فهد سلطان قد طلب مني تناول الإمامة من هذا المنظور، وتشريحها نفسيا ذات يوم من صيف ٢٠١٨م ونحن في الرياض، عقب قراءته لكتابي المذكور، مشددًا على أهميّة الفكرة، فتعززت الفكرة أكثر، ووعدته بذلك. ولانشغالي من يومها بالدراسات العليا، عملت على تأجيل الفكرة حتى فرصة مواتية، مع أني لا أؤمن عادة بالانتظار للفرص، فتلك من سمة العاجز غالبا،

وأنتَ من يصنعُ الفرص، وليست هي من تصنعك، ودائما أردد بيتا من الشعر لأحمد شوقي:

وما نيلُ المطالب بالتمني ولكن تُؤخذُ الدنيا غلابا

إن الغوصَ في دخائل النفسية الإمامية للكيان الهادوي في اليمن يضعها على مشرحة الحقيقة كاملة دون غطاء، وتلك المعرفة الحقيقية للنظرية كاملة، لأن أيّ سلوك لا يتحقق على أرض الواقع إلا بعد أن يجول في الخاطر، ويتفاعل في النفس، وأفعال الإمامة الهادوية هي جزء من تفكيرها، وإن شئتَ قل كل تفكيرها الحقيقي.

ونحن إذ نقدم هذا الكيان العنصري للجمهور كما قدم نفسه هو في بنيته النفسية، لأننا تعاملنا مع نصوصه من زاوية نفسية، كما هو الشأن مع أفعاله أيضا. والحقيقة أننا لم نفعل أكثر من إماطة اللثام وإزاحة الساتر فقط، فأسفرت الحقيقة بينة كما هي.

النصر لليمن، الخلود للجمهورية، المجد لسبتمبر الخالد.

ثابت الأحمدي

سبتمبر ٢٠٢٠م

مدخل

في الوقت الذي يرى البعضُ أنّ علمَ النفس من العلوم الحديثة؛ خاصّة فيما يتعلق بالتجريب، فإن ثمةَ آخرين يرون أنه ينزعُ إلى آلاف السنين، عرفتْه بعضُ الحضارات القديمة، ومارستْه عمليا في حياتها. فهو عند الصينيين منذ ثلاثة آلاف عام عند الصينيين، وقد أطلق الصينيون عليه اسم "ميان شيانج"، والمقصود به علم قراءة الوجه. واستخدمه قدامى المصريين واليونانيين أيضا. كما عُرف عند العرب بالفِراسة، من التفرُّس، للاستدلال بالأحوال الظاهرة على الأخلاق الباطنة، أو على ما يتخلق في النفوس من اعتمالات داخليّة، لم تُفصح عنها الأفعال؛ لذا شاع عند العرب قديمًا ما عُرف بالعيافة والقيافة والريافة، وغيرها من المسميات ذات المدلولات النفسية، المرتبطة بالفراسة، وهي في الأساس مرتبطة بعلم النفس.[1] وبهذا نستطيع القول أن هذه هي البذورُ الأولى لعلم النفس بجميع فروعه لاحقا، وإن كان علمُ الفِراسة قد أصبح مؤخرًا أحد فروع علم النفس.

ولم تبتعدْ نظرية أبوقراط في الطب القديم عن علم النفس كثيرًا؛ حيث فصّل تأثير الأمزجة الأربعة على الإنسان، وربطها بالسلوك ربطا مباشرا.[2]، كما ربط الصُّوفيون الفِراسة بقوة

---

١ ـ العيافة: تتبع آثار الأقدام والخفاف والنعال في التربة. والقيافة: معرفة الإنسان بالنظر إلى بشراتهم وملامحهم وأجسادهم. والريافة: معرفة مصادر المياه من التربة والرائحة ورؤية النبات وحركات الحيوانات المخصوصة.

٢ ـ الأربعة الأمزجة هي: ١ـ المزاج الدَّموي: يُعبّر عن الشخص الذي يغلب في جسمه الجانب الدموي أكثر من الجوانب الأخرى، بحيث يصبح الشخص الذي يغلب عليه هذا المزاج متسرّعاً وشديد الانفعال. ٢ـ المزاج السَّوداوي: يتمثّل الجانب السوداوي في وجود دم متخثّر في طحال الإنسان، وعندما يكون هذا الجانب هو الغالب في الجسم فإنّه يعود على الشخص بالانطوائية والاكتئاب.

٣ـ المزاج الصَّفراوي: يعتمد على نسبة الصَّفار في الكبد، فإذا غلب هذا الجانب على جسم الإنسان يصبح الفرد ميّالاً إلى الحزن بشكل عام، كما يتّصف بسرعة الغضب والانفعال.

٤ـ المزاج البلغمي: يعبّر عن زيادة البلغم في الخلق، فكثرة البلغم في حلق الشخص تجعل منه شخصاً هادئاً وميّالاً إلى الابتعاد عن الناس أي منطويًا على نفسه.

الإيمان، وقرّروا أن قوة الفراسة مرتبطة بقوة الإيمان، وإن كان في كلامهم هذا نظر؛ إذ الإيمان "تواجدٌ" نفسي و "تحليق" روحي، فيما الفراسة مرتبطة بالذكاء، والذكاء الخارق، وإن كانت طهارةُ النفس وشفافيتها تساعدُ على استجلاء الحقائق وكشف الغوامض، وفي الأديان كلها ما يساعدُ على ذلك.

والواقع أن تصرفات الناس وسلوكياتهم مرتبطة أساسا بالحالة النفسية، سلبًا أم إيجابا؛ سواء النفسية الفردية أم الجماعية، فكما للفرد بواحده نفسًا فإن للجماعة أيضا بمجموعها نفسًا واحدة، تمثل منطلقا للسلوك، باعتبارهم كيانا واحدًا ذا منزع تفكيري أيديولوجي موحد؛ وما يصح استقراؤه وتتبعه في سلوكيات الأشخاص يصح أيضا في سلوك الجماعات. ففي عالم الجماعات ـ وخاصّة الجماعات المؤدلجة ـ يصح القول: إنّ سلوكَ الشخص وتفكيره هو سُلوك وتفكير جماعته التي ينتمي إليها غالبا، فهو جزءٌ منها وعيّنة من كتلتها الكبيرة، يتماهى فيها، وفيها تذوبُ شخصيته، وعادة ما ينصهرُ الجزء في الكل، أو الأقلية في الأكثرية، انصهارًا تاما حتى لتكادُ تختفي الفردية تماما، مقابل تضخم الجماعة التي تنظر للفرد داخلها باعتباره تُرسًا في الآلة الضخمة يدورُ معها حيث دارت.

سيكولوجيا المعتقدات

من نافلة القول أن الأيديولوجيات لا تقوم إلا على إبادة مخالفيها، سواء كانت الإبادة مادية أم معنوية، أم الاثنين معا، فالأيديولوجيات بطبيعتها صارمة، نافية للآخر، وإن ادعت القبول به. وما يجب أن نعيَه يقينا أن الأيديولوجيا الإمامية بشكل عام من أقوى وأصلب الأيديولوجيات الدينية، وتمتلك موروثا سياسيا وثقافيا مهولا، وقد لا تكون هذه هي الخطورة هنا، الخطورة الأكثر تكمن في ذلك الكم من القطيع المؤمن بها إيمانا أعمى، على الرغم من كونها فكرة خرافية من أساسها، ولهذا سالت لها الدماء أنهارًا، وتكومت بسببها الجماجم تلالا، ذلك أن أبشع المظالم تنشأ عن أقوى المعتقدات لا عن صحتها، وبحسب إيريك هوفر: "ليس من الضروري لكي تصبح العقيدةُ فاعلة أن يفهمها المرء؛ ولكن من الضروري أن يؤمن بها".[1] وما أكثر القطيع المؤمنين بأيديولوجيا النظرية الهادوية، كما هو الشأن مع بقية النظريات المتطرفة الأخرى كالنازية والفاشية والصهيونية والخمينية.!! فجميعها نظريات سياسية إرهابية تدعي امتلاك الحقيقة وحدها دون غيرها، وتعمل على تنشئة أفرادها على هذا. ومن هنا يسهل قيادة القطيع المؤمن إيمانا أعمى بنظريته الخاصة؛ خلافا لذوي النزعات العقلية المتحررة، وأصحاب الفكر المستنير يصعب قيادهم، أو التحكم فيهم؛ إذ ينظر كل منهم لنفسه باعتباره فيلسوفا وقائدا لوحده، فيما المقلد أو الجاهل أمامَ قائده أو شيخه أو أستاذه كالميت بين يدي المغسل. وقد احتوت التعاليم الفاشية العشرة على بند خاص يقول: "موسوليني على حق".[2]، وكونه على حق إذن فلا يجوز اعتراضه أو رد رأيه أو حتى التعقيب

---

١ ـ المؤمن الصادق، إيريك هوفر، ترجمة: د. غازي بن عبدالرحمن القصيبي، هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، ط:١، ٢٠١٠م، ١٣٣.

٢ ـ بينيتو أندريا موسوليني (٢٩ يوليو ١٨٨٣ – ٢٨ أبريل ١٩٤٥) حاكم إيطاليا ما بين ١٩٢٢ و١٩٤٣. شغل منصب رئيس الدولة الإيطالية ورئيس وزرائها وفي بعض المراحل وزير الخارجيَّة والداخليَّة. وهو من مؤسسي الحركة الفاشية الإيطاليّة وزعمائها، سمي بالدوتشي، أي القائد من عام ١٩٣٠م إلى ١٩٤٣م. يعتبر موسوليني من الشخصيات الرئيسية المهمة في تكوين الفاشية.

على كلامه. هذا هو شأن موسوليني وهي نظرية أرضية لا علاقة لها بالسماء، أما إذا ما تم ربطها بالسماء فالأمر أكثر سهولة ولا يحتاجُ لمزيد من التأكيد أمام الأتباع، فمناقشة أمر السماء كفر، يستوي في هذا البروفيسور والأمي على حد سواء..!

نعم.. نجد أساتذة الرياضيات والفيزياء والكيمياء والآداب واللغات من الحاصلين على درجة الأستاذية في تخصصاتهم العلمية يتركون مناهج البحث العلمي ومنطق الحجاج العقلي الذي استخدموه في بحوثهم العلمية جانبا في لحظة من اللحظات، ثم يولولون في زاوية حسينية على دم الحسين، أو على ظلم فاطمة حد توهمهم..! كما نجد أيضا بعضا من هؤلاء من الهندوس ممن يغادرُ مكتبه الفخم أو مختبراته العلمية لينحني أمام البقرة، معتقدا فيها الضر والنفع.! وذات الشأن أيضا مع فكرة الخلاص المسيحي وعودة يسوع، أو مع فكرة الهيكل المزعوم واستعادة مملكة الرب في أرضه..!

إنها سيكولوجيا المعتقدات التي تتطلب قلبا للإيمان بها، لا عقلا لمناقشتها، فمع المعتقدات تعامل بقلبك وضع عقلك جانبا.[1] لأنه متى ما اتجهت الأيديولوجيات إلى العقلنة قل توحشها، وقل أتباعها، ومن هنا تكتسب المعتقدات القوة من هؤلاء الأتباع "القطيع". وكلما كانت المعتقدات أكثر رسوخا في النفوس قل التسامح بشأنها وزاد العنف؛ لهذا تجد القاتل صاحب الأيديولوجيا الصلبة أكثر راحة نفسيّة كلما حصد سيفُه سابقا أو بندقيته حاليا الأكثر من الرؤوس. فكل ما يفعله هو من تعاليم الرب، ومقابل ذلك تنتظره الحور والغلمان والخمر وكل ما يحلم به وما لا يحلم؛ لهذا قال روبسبير: "إن الله يريدُ أن تُطرح الرأفة والإنسانية جانبا عند الجهاد في سبيله".[2] وفي الجماعات المسيحية كما في الجماعات الإسلامية كان الكاثوليكي في فرنسا يتلذذ بصوت الدم حين يذبح أخاه البروتستانتي، كما هو الشأن مع الشيعي الذي يرى في أخيه المسلم أكثر خطرا عليه من الصهيوني أو البوذي. ووفقا لجوستاف

١ ـ كان رودلف هس ـ وهو الرجل الثاني في الحزب النازي بعد هتلر ـ يقول للشباب حين يرددون القسم النازي: "لا تبحثوا عن أدولف هتلر بعقولكم، ستجدونه كلكم في قلوبكم".

٢ ـ روح الثورات والثورة الفرنسية، جوستاف لوبون، ترجمة: عادل زعيتر، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٣٣.

لوبون: "إن عدم التسامح بين أنصار المعتقدات المتقاربة يكون أشد مما بين المعتقدات المتباعدة".[1]

ويرى عالم النفس الاجتماعي الفرنسي "بيار بورديو" أن الخطاب الديني المتطرف الأصولي هو خطابٌ رمزي يؤول النصوص الدينية ويشوهها عبر خطاب عاطفي لا عقلاني. فهو يمتلك سلطة رمزية، تكتسب شرعيتها من مقولاتها الخاصة، ومن منطقها الداخلي، ومن مفاهيمها الذاتية. كما يستمد شرعيته من استعدادات مؤيديه بشكل غيبي وانفعالي يدغدغ الغرائز الحسية والجسدية، وينتج تأويلات خاطئة لمفهوم الحوار الثقافي، لأنه مستمد من خطاب ديني أسير الصورة الأولى البدائية، وتتحكم فيه ثنائيات ساذجة، كالخير والشر، والإيمان والفكر، والعقل والنقل، حيث ينتقل الخطاب الديني إلى خطاب إلهي، يتماثل مع النص الديني المقدس، أو يتماهى معه..[2]

الدافعية Motivation

الدافعيّة عند علماء النفس مصطلح يدل على سلوك الأشخاص في المواقف المختلفة، فهو يدل على العلاقة الديناميكيّة بين الكائن الحي ومحيطه، ويضم العوامل الفطريّة والمكتسبة، الخارجيّة والداخليّة، الشعوريّة واللاشعوريّة، وكل ما يتعلق بالنشاط الذهني والحركي، فهي مجموعة من الحوافز موجودة في سلوك الكائن الحي، سواء كان حيوانًا أو إنسانًا، ويختلف السلوك الإنساني بأنه قائم على اختبارات واعية، ودوافع موجودة في اللاوعي، وعلماء النفس يستخدمون مصطلح الدافع للتعبير عن الحالة الداخليّة النفسيّة التي تدفع الشخص نحو سلوك معين لتحقيق هدف ما، فهو قوة محركة للسلوك، فالطالب يدرس ويجتهد لتحقيق هدف النجاح، والوصول إلى مركز اجتماعي معين، وهذه الدوافع نستنتجها من السُّلوك

---

١ ـ نفسه، ٣٤.

٢ـ انظر: سوسيولوجيا العنف والإرهاب، إبراهيم الحيدري، دار الساقي، بيروت، ط:١، ٢٠١٥م، ١١٧.

الصادر عن الشخص، فالسلوك المتوجه للاختلاط بالناس يكون دافعه اجتماعيًا، وإن كان متجهًا إلى الطعام يكون الدافع الجوع، وإن اتجه إلى الشراب يكون الدافع العطش[1].

فما الدافع إذن في النظرية الإمامية الهادوية؟

إنه مزعومُ الحق الإلهي الموهوم، وهو مدار النظرية ومحور ارتكازها كاملة. وهو ما صرح به يحيى حسين الرسي بقوله:

أرى حقَّنا مُسْتودعًا عند غيرِنا ولا بدَّ يومًا أن تُرد الودائعُ

كما قال من بعده أيضا السفاح عبدالله بن حمزة: "ونحن طَلَبةُ الحَقِ الذي غُلبنا عليه، وورثة العِلم الذي دعونا إليه، ونحن الموتورون، وطَلَبة الدم، ولو لم يبق من عمر الدنيا إلا يوم واحد لطوَّل الله ذلك اليَوم حتى نملك الأرض بين أقطارها على بني العباس، وعلى غيرهم من الناس، قَال تعالى: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ} الأنبياء:١٠٥. ولا يكون ذلك إلا من تلقاء اليَمن، وربك أعلم مَن صاحبه؛ وكل مُستحق يرجو أن يكون صَاحِبَ ذلك، ليُعزَّ دينَ الله، لا ليوسِّع في الدنيا.."[2]

والواقع أن هذا هو منطقُ الرسي، كما هو منطق مَن قبله ومَن بعده من هذا الكيان، وهذا هو سر ديمومة هذه النظرية على اعوجاج منطقها منذ زمن بعيد وحتى اليوم، لأن الإيمان بالقضايا الكبرى سر نجاحها، سواء كانت صحيحة أم باطلة.

نعم.. إنها سيكولوجيا التنشئة على المعتقدات، والتي تعمل عمل السحر، بصرف النظر عن صحة هذه المعتقدات من خطئها، وليس من جماعة إلا وترى نفسها أنها الحق، والحق المطلق؛ بل والحقيقة الوحيدة، وكل نواميس الكون وقوانين الحياة يجب أن ترتبط بتعاليمها.

---

١ ـ موضوع كم، على الرابط:
https://mawdoo3.com/%D9%85%D9%81%D9%87%D9%88%D9%85_%D8%A7%D9%84%D8%AF%D8%A7%D9%81%D8%B9%D9%8A%D8%A9_%D9%81%D9%8A_%D8%B9%D9%84%D9%85_%D8%A7%D9%84%D9%86%D9%81%D8%B3

٢ . مجموع مكاتبات الإمام عبدالله بن حمزة، تحقيق: عبدالسلام بن عباس الوجيه، مؤسسة الإمام زيْد بن علي الثقافية، ط:١، ٢٠٠٨م، ٤٠٢.

ومن هنا ندرك سر القسوة والحدة المفرطة التي تتبعها الجماعات تجاه الكيانات الأخرى، المغايرة لها.

يُنشِّئُ هذا الكيانُ أفرادَه صغارًا على التماهي أولا والذوبان داخل الجماعة/ العرق منذ طفولتهم على مفاهيم عصبوية تحمل في بذورها نفي الآخر وغمطه وازدرائه، بالقول: أنت "سيد" وأنت "أفضل" من الغير. وأنت من سلالة أرقى، إلى آخر هذه المصطلحات العنصرية التي تكبر داخلَ عقل الطفل، وتتضخم مع مرور الأيام، حتى تصبح عقيدة راسخة في وجدانه. وفي مرحلة اليفاعة فالشباب يغرس المربي في ذهنه مزعوم مظلمة تاريخية، وحق مستلب، منذ قرون غبرت ومضت، فتكبر معتقداتهم بالمطالبة بحقهم مع كبرهم هم، ومن ثم يصبح كل عنصرٍ في هذا الكيان مشروع ثائر؛ بل مشروع قاتل أو مقتول؛ لأنه يعتقد أن له حقًا اكتسبه من السماء، فاغتصبه المجتمع منه؛ ولأنه يعتقد ـ أولا وأخيرا وهو الأهم ـ أنه مشروع إمام أو خليفة أو ملك، بناءً على مزعوم هذا الحق الواهم.

وباستقراء تاريخ العصبويات سيكولوجيًا نجد أنه كلما كان الهدف كبيرا زادت نسبة الالتفاف حوله والتفاني من أجله، خاصة إذا ما ارتبط بهدف مثالي أعلى، بصرف النظر عن صحة هذا المعتقد من عدمه، ويُعتبر الخروج عن عش هذه الجماعة مروقًا من الدين؛ وربما عُدّ مجرد خروجه فقط منها محاربًا وعدوا، ولو لم ينتقل إلى صفوف الخصم، لأنه تنكر للهدف السامي والأكبر، وبين يدينا نموذج آخر من العُصبويات المعاصرة على سبيل المثال العصبوية "الخمينية" التي تأسست في العام ١٩٧٩م على ذات المثال الواهم، وهي "الإمامة" وخلقت لها أتباعا من القطيع المؤمنين إيمانا أعمى بما يقوله الأحبار والرهبان..! وقبلها كانتا النازية الهتلرية والفاشية الموسولينية اللتين اتسمتا بذات القدر من الحماس الأيديولوجي والتعصب الفكري لولا الظروف الخارجية التي أحاطت بهما وجعلتهما أثرًا بعد عين، وخاصة الأولى.

الإمامة الهادوية بما تحتوي عليه من "استيهامات" دينية بالنسبة للبعض، وأيضا من امتيازات ومكاسب دنيوية لمن ينظر إليها من هذه الناحية هي الهدف الأسمى، والقضية المركزية التي

يندفع لها عناصر الكيان الإمامي، ويعملون من أجلها بالسّر والعلن، صغارا وكبارا؛ بل يوظفون كل شيء لصالحها، وكأنها محور الكون وقانون الحياة، تماما كما كان الحال مع الكنيسة في أوروبا في عصورها الوسطى حيث تداخل مفهوم الدفاع عن الكنيسة بامتيازاتها المادية مع مفهوم الدفاع عن العقيدة، عقيدة الخلاص المسيحية.

العدوى النفسية

إن العدوى النفسية كالعدوى الحسية المادية، تسري بين الجماعات كما يسري الوباء، والمرء يتقبل الأفكار أكثر كلما ترددت على مسامعه أكثر، لا كلما عُرضت على عقله، وخاصة في مرحلة الطفولة، ووفقًا لجوستاف لوبون: "وعلى نسبة أفراد الجماعة يكون تأثير العدوى شديدا. ولا يلبث المعتقد الضعيف أن يصبح قويا بعد أن يكتسب الأفراد الذين يعتنقونه صفة الجماعة. والمعتقد بعد أن ينتشر بالعدوى لا يُلتفت إلى قيمته العقلية؛ إذ لما كانت العدوى تؤثر في دائرة اللاشعور فإنه لا شأن للعقل فيها..".[1]

وتزداد هذه العدوى ثباتا ورسوخًا في المجتمعات المنغلقة على نفسها والبدائية، والتي لا تنتشر فيها نوافذ الثقافة أو أضواء المعرفة، كما هو الشّأن في جبال شمال اليمن الحصينة التي ظلت مغلقة على نفسها فترة طويلة من الزمن، فباض فيها الكيان الإمامي وفرّخ، وامتلك حاضنة اجتماعية بسبب الجهل أو التجهيل الذي فرضت على كثير من شباب هذه المناطق. وهي أساسا لم تنشأ إلا في جبال الجيل والديلم، وجبال الرس، وجبال اليمن، بعيدا عن المدن. ومن هنا اكتسبت تلك الصلابة والشراسة والانغلاق على الذات.

هؤلاء الشباب الذين تستخدمهم الإمامة الهادوية في صراعها ليسوا مجرمين بالفطرة، أو متخلفين بالطباع، وإن كان لديهم من الإرث التاريخي ما يعزز هذا السلوك فيهم. لديهم فائضٌ في النشاط والحيوية، وفائض في البطالة والفقر، استغل هذا الفائض "الصنمان المقدسان" تاريخيا في المنطقة وما حولها: "امشيخ وامسيد"!! وجعل منهم كتلا متحركة، مجردين من أبسط الحقوق الطبيعية. شباب مكانهم الطبيعي الجامعات.. المعسكرات..

---

١ ـ الآراء والمعتقدات، جوستاف لوبون، ترجمة عادل زعيتر، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ط:١، ٢٠١٤م. ، ١٥٦.

المصانع.. أسواق العمل المختلفة في اليمن وخارج اليمن. أما أن يظلوا فارغين في قراهم، بلا أعمال، كما يريد لهم هذان الصنمان فالكارثة لن تتوقف..

ولكون هذه الجماعة انعزالية شعوريا، ومتحيزة ثقافيا فقد أسسوا من وقت مبكر ما أسموه فقه آل البيت، أو علم آل محمد، معتقدين أنهم يتوارثونهم بواسطة أعضائهم التناسلية، وهو فقه وعلم غير الفقه الذي أجمعت عليه الأمة، ويمثل "نهج البلاغة" المنسوب لعلي بن أبي طالب مرجعية أدبية وسياسية لهم، كما تمثل قصيدة الشريف المرتضى واحدة من الأدبيات الشعرية التي حفظها أبناؤهم صغارا منذ القرن الرابع الهجري وإلى اليوم.

نَبّهتُهُمْ مِثْلَ عَوَالي الرّمَاحْ إلى الوَغَى قَبلَ نُمُومِ الصّبَاحْ
فوارس نالوا المنى بالقنا وصافحوا اعراضهم بالصفاح
لغارة سامع انبائها يغص منها بالزلال القراح
لَيسَ عَلى مُضْرِمِهَا سُبّةٌ ولا على المجلب منها جناح
دُونَكُمُ، فابتَدِرُوا غُنمَهَا دُمًى مُباحاتٍ، وَمَالٌ مُبَاحْ
فاننا في ارض اعدائنا لا نَطَأُ العَذْرَاءَ إلاّ سَفَاحْ
يا نَفْسُ مِنْ هُمٍّ إلى هِمّةٍ فلَيسَ من عِبْءِ الأذى مُستَرَاحْ
قَدْ آنَ للقَلْبِ الّذِي كَدَّهُ طُولُ مُناجاة المنى أنْ يُرَاحْ
لا بُدّ أنْ أرْكَبَهَا صَعْبَةً وَقَاحَة ً تَحْتَ غُلامٍ وَقَاحْ
يُجْهِدُهَا، أوْ يَنْثَني بِالرّدَى دون الذي قدر أو بالنجاح
الراح والراحة ذل الفتى والعز في شرب ضريب اللقاح
في حَيثُ لا حُكْمٌ لغَيرِ القَنَا وَلا مُطاعٌ غَيرَ داعي الكِفَاحْ
مَا أطْيَبَ الأمْرَ، وَلَوْ أنّهُ على رزايا نعم في مراح
وَأشْعَثِ المفْرِقِ ذي هِمّةٍ طوحه الهم بعيداً فطاح
لما رَأى الصّبْرَ مُضِرّاً بِهِ رَاحَ، وَمَن لمْ يُطِقِ الذّلّ رَاحْ
دَفعاً بصَدْرِ السّيْفِ لَمّا رَأى ألاّ يَرُدّ الضّيْمَ دَفعاً بِرَاحْ
متى ارى الزوراء مرتجة تمطر بالبيض الظبي أو تراح
يَصِيحُ فِيهَا المَوْتُ عَنْ ألسُنٍ من العوالي والمواضي فصاح

بكل روعاء عظينية يَحتَثّهَا أرْوَعُ شَاكي السّلاحْ
كانما ينظر من ظلها نعامة زيافة بالجناح
متى ارى الارض وقد زلزلت بعارض اغبر دامي النواح
متى ارى الناس وقد صبحوا أوَائِلَ اليَوْمِ بِطَعْنٍ صُرَاحْ
يَلتَفِتُ الهَارِبُ في عِطْفِهِ مروعاً يرقب وقع الجراح
متى ارى البيض وقد امطرت سَيلَ دَمٍ يَغلِبُ سَيلَ البِطاحْ
متى ارى البيضة مصدوعة عن كل نشوان طويل المراح
مضمخ الجيد نؤوم الضحى كَأنّهُ العَذْرَاءُ ذاتُ الوِشَاحْ
اذا رداح الروع عنت له فرالى ضم الكعاب الرداح
قوم رضوا بالعجز واستبدلوا بالسيف يدمى غربه كاس راح
تَوَارَثُوا المِلكَ، وَلَوْ أنْجَبُوا لَوَرّثُوهُ عَنْ طِعَانِ الرّمَاحْ
غَطّى رِداءُ العِزّ عَوْرَاتِهِمْ فافتُضِحُوا بالذّلّ أيَّ افتِضَاحْ
إنّيَ وَالشّاتِمَ عِرْضِي كمَنْ روع اساد الشرى بالنباح
يطلب شأوى وهو مستيقن ان عناني في يمين الجماح
فَارْمِ بِعَيْنَيْكَ مَلِيّاً تَرَى وقع غباري في عيون الطلاح
وارق على ظلعك هيهات ان يزعزع الطود بمر الرياح
لا هم قلبي بركوب العلى يوما ولا بل يدي السماح
إنْ لمْ أنَلْهَا باشتِرَاطٍ، كَمَا شِئْتُ عَلى بِيضِ الظُّبَى وَاقتِرَاحْ
افوز منها باللباب الذي يُغني الأمَاني نَيْلُهُ وَالصُّرَاحْ
فَمَا الذِي يُقْعِدُني عَنْ مَدًى لا هو بالنسل ولا باللقاح
طليحة مدّ باضباعه وَغَرّ قَبْلي النّاسَ حَتَى سجَاحْ
يطمح من لا مجد يسمو به اني اذاً اعذر عند الطماح
وَخِطّةٍ يَضْحَكُ مِنْهَا الرّدَى عشراء تبري القوم بري القداح
صَبرْتُ نَفْسي عِنْدَ أهوَالِهَا وَقُلتُ: مِنْ هَبوَتِهَا لا بَرَاحْ
اما فتى نال العلى فاشتفى او بطل ذاق الردى فاستراح

إن في هذه القصيدة وحدها والتي نظمها نقيب الطالبيين ـ ومثلت مرجعية أدبية يتوارثها كلُّ طفل يولدُ من ذلك الزمن وإلى اليوم ـ من الحماس الثوري والاستثارة النفسية ما في كل قصائد الشعر من الحماس والاستثارة والتجييش كلها. ووفقا لابن الوردي: "حين يدافع الإنسان عن عقيدة من عقائده المذهبية يظن أنه إنما يريد بذلك وجه الله، أو حُب الحق والحقيقة، وما درى أنه بهذا يخدعُ نفسه. إنه في الواقع قد أخذ عقيدته من بيئته التي نشأ فيها، وهو ولو كان قد نشأ في بيئة أخرى لوجدناه يؤمن بعقائد تلك البيئة من غير تردد، ثم يظن أنه يسعى وراء الحق والحقيقة".[1] مضيفًا: "الواقع أن الإنسانَ يؤمنُ بعقيدته التي ورثها عن آبائه أولا، ثم يبدأ بالتفكير فيها أخيرا، وتفكيره يدور غالبا حول تأييد تلك العقيدة، ومن النادر أن تجدَ شخصًا بدّل عقيدته من جراء تفكيره المجرد".[2]

من هنا جاء التعدي وجاء إرهاب الغير، ووفقا لـ "ميلاني كلين" وهي من أبرز خلفاء فرويد في ميدان التحليل النفسي "أن العدوان يعتمل داخل الطفل من بداية الحياة".[3] لهذا لا تحتاج الثورات والانقلابات فيما بعد إلا أن تقدح الزناد فقط فالبارود في الرأس، ولا يحتاج غير قدح الشرارة الأولى فقط. ومع تداخل الفرد مع الجماعة تتماهى أخلاقه داخلها، ويصبح وحشا كاسرا لا تعرفه، وقد تطبع بطباعها دون أن يدري، ومعلوم للجميع أن منطق الجماعة غير منطق الفرد. الجماعة جياشة عاطفية، مسرفة في عاطفتها وفي نزقها، وأقل تحريض من قائد القطيع يجعل الجماعة ترتكب أبشع الأعمال وأقساها. ومن يتأمل عنف الجماعات يجد جنونا من الوحشية غير متخيل.

---

١ ـ انظر مهزلة العقل البشري، د. علي الوردي، دار كوفان للنشر، بيروت، لبنان، ط:٢، ١٩٩٤م، ٤١.

٢ ـ نفسه، ٤٣.

٣ ـ سيكولوجية العدوان، خليل قطب أبو قورة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ١٩٦٦م، ١٠٣.

يقول جوستاف لوبون: "وما تتصف به الجماعات من سرعة التأثر والانفعال يجعلها مفرطة في مشاعرها التي تكون ضارة أو نافعة، ويعظمُ هذا الإفراط في أيام الثورة، فأقل تحريضٍ يدفع الجماعات وقتئذٍ إلى القيام بأقسى الأعمال".[١]

مضيفًا: "ومن أهم النتائج التي تنشأ عن تأثير الجماعة في أفرادها توحيد مشاعرهم وعزائمهم، ومن هذه الوحدة النفسية تكتسب الجماعات قوة عظيمة، والباعث على تكوين هذه الوحدة النفسية هو انتشار المشاعر والحركات والأعمال بين الجماعة بالعدوى على الخصوص".[٢]

ثمة نص أدبي في رواية تحمل اسم الرئيس الليبي السابق معمر القذافي، اسمها "الفرار إلى جهنم" تُقرر هَذا الشعورَ النفسي المتوحش بأصدق ما يكون، مجسدا فيه حالته الشعوريَّة التي آل إليها هو بنفسه في آخر لحظاته، وكأنما كتب عن نفسِه.!

يقول: "ما أقسى البشرَ عندما يطغون جماعيًا! يا له من سيل عرم لا يرحم مَن أمامَه، فلا يسمع صُراخه، ولا يمد له يده عندما يَستجديه أو يستغيث؛ بل قد يدفعه أمامَه في غير اكتراث. إن طُغيانَ الفرد أهونُ أنواع الطغيان، فهو فرد في كل حَال، تزيله الجمَاعة، ويزيله حتى فرد تافه بوسِيلة ما، أمَّا طُغيان الجموع فهو أشَد صُنوف الطغيان. فمن يقف أمَام التيار الجارِف والقُوة الشَّاملة العَمياء؟ يا للهول! من يخاطب الذات اللاشاعرة كي تشعر؟! من يناقش عَقلا جَماعيًا غير مجسد في أي فرد؟! من يُمسك يد الملايين؟! من يسمع مليون كلمة من مليون فم في وقتٍ واحد؟! من في هَذا الطغيان الشَّامل يتفاهم مع من؟! ومنْ يلوم من؟! .."٣

١ ـ روح الثورات، سابق، ٧١.

٢ ـ نفسه، ٧٢.

٣ . الفرار إلى جهنم، معمر القذافي، الهيئة المصرية العَامَّة للكتاب، القاهرة، ط:٢، ١٩٩٦م، ص ٤٣.

إن المعتقدات الأيديولوجية قيود لا شعورية، تُسيّج العقل والفكر بدون أن يعرف الشخص، وربما ادعى عنصر الجماعة ـ أي جماعة ـ أنه متحرر الفكر، منطلق التفكير؛ لكنه لا يدرك أنه حر أو متحرر إلا داخل الدائرة نفسها فقط، وهي ما يمكن أن نسميها "حرية القمقم"..!

يحيطك المعلم/ المربي بدائرة ما، ثم يقول لك: كن حُرا داخل الدائرة..! وهي حرية تشبه حرية العصفور داخل القفص، أو حرية القطيع داخل الحظيرة الواسعة. وما لم يتجاوز هذا العنصر تلك الدائرة المضروبة حوله سيظل أبد الآبدين يعتقد أنّ فكرَه ومعتقده هو الأصح وحده، وأن الآخرين على الخطأ، كل الخطأ. ومن هنا رأينا كيف تتمدد الأيديولوجية الهادوية بالجهل في المجتمعات الجاهلة، وتنكمش في المجتمعات المتعلمة والمثقفة بالوعي. وهو ما يدركه منظروهم الكبار والسياسيون، فيعملون على تجهيل الناشئة، وإن من تعليم لهم، فهو تعليم تراثهم الخرافي؛ أما أبناؤهم فيرسلونهم إلى أرقى الجامعات العالمية. وبين يدينا فتوى لفقيه مقامي وهو المفتي أحمد محمد زبارة الذي وجَّه رسَالَة للشهيد الزبيري، ينصحُه هو ورفاقه بعدم الاهتمامِ بالقبائل وأبنائها، وتركهم على حالهم، قائلا: ".. وإن من الأوفق لهم ألا يسعوا إلى تحسينِ وضع القَبَائلِ وتعليمهم، وإدخال الوسَائل الحديثةِ لإسعادِ أهل اليَمن، من بناء مدارسَ ومُستشفياتٍ وطرقاتٍ، وأنَّ عليهم السمعَ والطاعةَ للإمام وإن ضرب ظهرهم.. وأنه لا حاجةَ لهم من التعليم غير معرفة فروضِ العبادة، وأن الأولى والأجدر بالقبيلي أن يبقى فلاحًا، فلا يحتاج إلى نعال، ولا إلى ملابس، ولا إلى علاج؛ بل يجبُ أن يستمرَّ في جهالته وشقائه وبؤسِه ومرضِه، بجوار ثوره ومحراثه وماشيته"[1]

[1] . هجر العلم ومعاقله في اليمن، القاضي إسماعيل بن علي الأكوع، دار الفِكر المعاصر، بيروت، لبنان، دار الفكر، دمشق، سورية، ط:١، ١٩٩٥م، ٢/٦٠٤.

سيكولوجيا النظرية

في المثل السائر: "من شبّ على شيءٍ شابَ عليه". ومن شعر البوصيري:

والنفس كالطفل إن تهمله شب على حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم

إن الصّراعَ الداخلي القرشي قديمٌ من قبل الإسلام، لا من بعده، منذ وفاة زعيم قريش الأكبر قصي بن كلاب الذي قسّم المهام بين ورثته، ثم انقسموا بعد ذلك، وكان عبدمناف هو الأب الجامع لأمية وهاشم، واللذين توارثا الصراع بعد ذلك، كما توارثه أبناؤهما وأحفادهما إلى اليوم.[1]

يقول معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه وقد سئل: أيكم كان أشرف أنتم أم بنو هاشم؟ فأجاب: كنا أكثر أشرافًا وكانوا هم أشرف، وكان فيهم عبد المطلب، ولم يكن فينا مثله، فلما صرنا أكثر عددًا وأكثر أشرافًا، ولم يكن فيهم واحد كواحدنا، فلم يكن إلا كقرار العين حتى قالوا: منا نبي، فجاء نبيٌّ لم يسمع الأولون والآخرون بمثله، محمد صلى الله عليه وسلم، فمن يدرك هذه الفضيلة وهذا الشرف؟[2]

يقول سيد قمني: "على الرغم من أن ألوية السّيادة المستقرة في بيت عبدالدار قد كفلت له اختصاصات التحكم والقوة فإن تكتيك هاشم اتجه منحىً آخر، تمثل في اكتساب

---

١ ـ تفرقت كلمة قريش بعد وفاة المؤسس قصي بن كلاب؛ فآزر قسمٌ منها بني عبد مناف، وأيد آخرون بني عبد الدار، وبادر كل من الفريقين إلى عقد تحالف ضد الآخر. وقد سمي الحلف الذي تزعمه بنو عبد مناف باسم "حلف المطيبين" إذ أتوا بجفنة مملوءة بالطيب غمسوا أيديهم فيها، وأقسموا على التناصر والتآزر، ثم مسحوها بجدران الكعبة، بينما عقد خصومهم بنو عبد الدار مع من انضم إليهم من البطون حلفًا مهدوا له بإحضار جفنة مملوءة بالدم وغمسوا أيديهم فيها، ثم مسحوها بجدران الكعبة فسموا "الأحلاف" و"لعقة الدم". وأوشكت أن تقع بين الطرفين حرب طاحنة، لولا أن تداركها بعض العقلاء، ونجحت مساعي الصلح، وتم الاتفاق على أن تكون السقاية والرفادة لبني عبد مناف، والحجابة واللواء ورئاسة دار الندوة لبني عبد الدار.

٢ ـ البداية والنهاية، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تحقيق: علي شيري، الناشر: دار إحياء التراث العربي، ط:١، ١٩٨٨م، ٨/١٤٧.

القلوب، فقام يهشم الثريد لقومه بيديه؛ لذلك لقب هاشما، ومد بسخائه القاصي والداني؛ أما اسمه الحقيقي فكان عمرو، وكان أول من سنّ رحلتي الشتاء والصيف، وفيه قال الشاعر:

عمرو الذي هشم الثريد لقومه ورجال مكة مسنتون عجاف

سُنّت إليه الرحلتان كلاهما سفر الشتاء ورحلة الأصياف[1]

ورغم انزواء كل حلف بما معه من صلاحيّات في مهامه إلا أن الصراع تراجع من الظاهر إلى الباطن، ومن الألسن إلى القلوب، وظل كذلك فترة طويلة، وأشد أنواع الصّراعات ما يكون بين الأقارب عادة، إذ تظل حزازات النفوس متقدة غيظًا فيما بينها، خاصّة وأنّ كلا من الطرفين يدعي التميز على الطرف الآخر.

وهدأت حدة هذا الصراع بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، حتى وفاته، ليعود من جديد، رويدا رويدا، استعر أكثر أثناء خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه. وازدادت حدته بخلافات علي ومعاوية، ثم تفرد أمية بالحكم، ومن بعدهم العباسيون.

١ ـ انظر: الحزب الهاشمي، سيد قمني، مكتبة دار الندوة الإلكترونية، ٢٤. نسخة بي دي اف. متوفرة على النت.

العلويون والأمويون

ما أن تسلم بنو أمية زمام الحكم، ابتداء بمعاوية بن أبي سفيان حتى ثارت ثائرة العلويين وجُنّ جنونُهم؛ إذ كانوا يعتقدون أنهم الأولى بوراثة الحكم، كما يعتقدون أن بني عمومتهم "الأمويين" مغتصبين للحكم الذي منحهم الله إياه من السماء، وهي المعادل لشرعية الأمر الواقع التي فرضها معاوية بن أبي سفيان، أو هكذا أوهموا أنفسهم وأتباعهم أنهم يستمدون مزعوم حقهم من السماء؛ ولمعرفة بني أمية بنفسية بني عمومتهم وطبائعهم فقد تعاملوا معهم بحدية مفرطة، فتعاملوا معهم كعصابة مارقة، خارجة عن قانون الدولة الشرعية القائمة، فباءت كل محاولاتهم الانقلابية بالفشل الذريع، فحصدت السيوف الأموية أبرز الرؤوس العلوية، ابتداء من الحسين بن علي بسيف يزيد، وانتهاء بزيد بن علي بسيف هشام بن عبدالملك، وفيما بينهما عشرات الرؤوس العلوية الطامحة للعرش بلا بصيرة سياسية أو سند جماهيري، غير وهم الحق الإلهي الذي أوهموا أنفسهم به..!

ومن هنا تشكلت تلك النفسية الحاقدة، حقدا مريرا يقطر دمعا ودما، ومعها تشكلت ما أسموه مظلمة آل البيت، التي ربطوها مباشرة بالسماء، فتوارثت الأجيال اللاحقة حديث المظالم الذي كانت ترويه الأمهات والجدات لهم صغارا منذ طفولتهم الأولى، وشكل جزءا من نفسياتهم وثقافاتهم، إضافة إلى ما استجد لهم بعد ذلك كبارا.

كان الحسين بن علي باحثًا عن سلطة، كما كان زيدٌ من بعده كذلك، معارضا سياسيا وباحثا عن سلطة، فخسرا رأسيهما ثمنا لهذا الطموح. انقلبا على الدولة، فاتخذت الدولة قرارها الصارم؛ لذا حين سقط زيْدٌ صَريعًا، كان أول من وثب على جُثته ابنة أخيه، فلَمْلمتْ أشتات ثيابه، وخاطبتْه قائلة: "واعمّاه.. ما ضرَّك لو ظليت لزيمَ المصحفِ والمحراب حتى يأتي الله بالفرج؟! ألا ليت شعري، هل كنت ستبقى على المعهود منك لو حليت مكان هشام؟ ما خفت عليك من القتل أكثر من خوفي عليك من سلطان الأمر؛ لأن السُّلطة غرَّارة مفسدة".[1]

---

١ ـ انظر: اشتات، عبدالله البردوني، ط:٢، ١٩٩٥م، ١٩٥.

العلويون والعباسيون

كان العلويون قد تحالفوا مع بني عمومتهم العباسيين ضد الأمويين، ورفع الجميع شعار "الرضا من آل محمد"[1]، استقواء بكل الأطراف للانقضاض على الخصم القوي القائم، لكن بعد أن وصل العباسيون إلى الحكم سنة ١٣٢هـ كان حالهم مع العلويين كحال أسلافهم الأمويين، الحدة سيدة الموقف غالبا عدا فترات متقطعة بين الحين والحين كما هو الشأن أيام المأمون الذي قرب العلويين؛ لكنه تكبد المشاق والويلات جراء تقريبهم له، وكانوا عامل قلق له بجانبه، كما كانوا عامل قلق له معارضين.

لقد كان النَّفَسُ الثورِيُّ مُتواصِلا لدى أتباعِ هَذِه المدرسَة، فكان الخُروجُ مُستمرًا، وكانت مواقفُ رُموز هَذِه المدرسَة شجاعة ومحلَّ إعجاب العَامَّة الذين توافدوا إلى صَفها بلا تقدير للمواقف، فتواصل الخروج بالخروج، والتمرد بالتمرد على مر تاريخهم. ومَن يتأملْ تفاصيلَ المرحلة اللاحقة يلحظ سِلسِلةً متواصلةً من التمردات والانقلابات التي لم يَخْبُ أوارُها أو تنطفئ نيرانُها..[2]

وهؤلاء أبرز من خَرجوا على الحكم في العهد العبَّاسي من الرموز العلوية:

١. محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن، ذو النَّفْس الزكية.
٢ ـ إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن الحسن، أخو محمد.
٣ ـ الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن الحسن، الملقب بقتيل فخ.

---

١ ـ هذا الشعار رفعه أكثر من إمام في اليمن أثناء انقلاباتهم وثوراتهم على بعضهم البعض، فقد رفعه الإمَام المؤيد بن المتوكل على الله إسماعيل أثناء دعوته للإمامة بعد وفاة أبيه في ١٠٨٧هـ، كما رفعه . أيضا . أحمد بن علي السراجي أحد أكبر علماء صَنعاء في عهد المهدي عبدالله، وخرج به على الإمَام المهدي مع أصحابه في جمادى الأولى ١٢٤٧هـ، سبتمبر ١٨٣١م، وقَدْ أجابه كثير من قبائل خولان وأرحب ونهم، ومن بلاد حاشد وبكيل، إلا أنه لم يستطع أن يُسقط صنعاء، وتصالح مع المهدي عقب حصاره لصنعاء وفشله في إسقاطها، وقيل أن أصحابه قد قتلوه بعد ذلك..

٢ ـ تذكر المصادر التَّارِيْخِيَّة أن ثمانية من أبناء علي بن أبي طالب، من أصل اثني عشر ولدا قد قُتلوا من بعده قتلا سياسيا، وهم: الحسن والحسين وعبدالله وجعفر وعثمان والعباس ومحمد الأصغر وأبو بكر..!

٤ ـ يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي، صار إلى الديلم.

٥ ـ محمد بن جعفر بن يحيى بن عبد الله بن الحسن المثنى خرج بـ"تاهرت" أو "تيهرت" وهِي منطقة في الجزائر اليوم.

٦ ـ محمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي.

٧ ـ محمد بن محمد بن زيْد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب.

٨ ـ إبراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، خرج مرة باليمن، ومرة بالعراق.

٩ ـ محمد بن القاسم من ولد الحسين بن علي، خرج ببلدة يقال لها طالقان، في خراسان.

١٠ ـ محمد بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي الملقب بـ "الديباج" خرج داعية لمحمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم، فلما مات محمد بن إبراهيم دعا لنفسه.

١١ ـ الأفطس خرج بالمدينة داعياً لمحمد بن إبراهيم بن إسماعيل، فلما مات محمد بن إبراهيم دعا لنفسه.

١٢ ـ علي بن محمد بن عيسى بن زيْد بن علي بن الحسين، خرج في خلافة المعتصم.

١٣ ـ الحسن بن زيْد بن الحسن بن علي أبي طالب، خرج بطبرستان سنة ٢٥٠ هـ.

١٤ ـ الحسن بن أحمد بن إسماعيل، من ولد الحسين بن علي بن أبي طالب، الملقب بالكواكبي، وخرج بقزوين.

١٥ ـ أبو الحسين يحيى بن عمر بن يحيى بن الحسين بن زيْد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، خرج بالكوفة أيام المستعين.

١٦ ـ الحسين بن محمد بن حمزة بن عبد الله من ولد الحسين بن علي وخرج أيام المستعين أيضا.

١٧ ـ ابن الأفطس، خرج بسواد الكوفة أيام فتنة المستعين.

١٨ ـ إسماعيل بن يوسف بن إبراهيم من ولد الحسن بن علي، خرج بالمدينة، سنة ٢٥٠هـ، فغلب عليها، وتوفي عام ٢٥٢ هـ.

١٩ـ محمد بن يوسف، أخو إسماعيل بن يوسف، وقُتل كثيرٌ من أصحابه وهرب محمد فمات في هربه.

٢٠ ـ علي بن محمد بن علي بن عيسى بن زيْد بن علي، خرج في البصرة، وأنصاره الزنج، وغلب على البصرة سنة ٢٥٧ هـ وقتل سنة ٢٧٠ هـ.

وغير هَؤلاء الكثير، والكثير ممن حاول ولم يقدر على الخروج، وأيضًا من لحق هَؤلاء من الخارجين بعد ذلك وإلى اليوم.

وقَدْ شكَّل هَذا الخروج بهذه الطريقة المجازفة مواصَلة لما يعتبرونه نضالا، أو أمرًا بالمعروف ونهيًا عن المنكر، وإن كان الوصول إلى الحكم هو الغرض الأسَاس من وراء ذلك، مهما تخفت وراءه الشعارات، لأنه لا مُنْكر عندَهم يعدلُ مُنكر عدم حُكم آل البيت؛ فذلك المنكر كله، بل والكفر والخروج من الملة..! فلم تنقطع الفكرة التي طالما تمترسُوا خَلفها، ولم ينقطع القتال بشأنها، أو محاولة التوصُّل إليها، فكانت هَذِه السِّلسِلةُ من الخروج هِي المحفز لكل الأحْفاد، ولتصنعَ لكل جيلٍ منهم مظلمةً إنسانيَّة، تكون هِي الدافعُ الرئيس للوصُول إلى ما يعتبرونَه المظلمةَ السِّيَاسِيَّة وهِي الحُكم، وإن قالوا أنهم لا يريدون الحكم لذاته، فهذا محض افتراء وخِداع، لأن أي عَصَبيَّة لم تقم إلا من أجل الحُكم، كما ذكر ابن خلدون في مقدمته. وهَذه العَصَبيَّةُ هِي أمُّ العَصبِيَّات وأقواها وأكبرها، خاصَّة وأنها تقوم على النَّسب، وفي النسب ذاته أقوى العَصبيَّات وأشدها، مع الإشارة هُنا إلى أن ثمَّة آراءً لبعض الفقهاء الهَادَوِيَّة تقررُ وجوب غلبَة تقدير الانتصَار ونجاح الثَّورَة حتى لا تكون مغامرةً ضَررُها أكثر من نفعها؛ إلا أن هَذا الشَّرط قد بقي جانبا، ولم يُؤخذ في الاعتِبَار لدى الثائرين أو الخارجين، مثلما هِي النَّظَرِيَّة من أساسها، تنظيرات القوم في وادٍ، وأعمالهم في وادٍ آخر.

لهذا قال ابن حمزة:

أليس أبونا هَاشِمٌ شـدَّ أزرَه وأوصى بنيــه بالطِّعـان وبالضرب؟
فلسْنا نملُّ الحربَ حتى تملنا ولا نشتكي ما قد يكون من الحرب

سيكولوجيا العدوان

قبل الشروع في الحديث عن سيكولوجيا القتل لدى الكيان الإمامي البغيض ينبغي التوقف أولا عند تصنيف الفعل نفسه وتقييمه؛ أي: هل ما يقوم به هذا الكيان على امتداد تاريخه عدوانٌ أم دفاع؟ وسنرد الجواب بسؤال: هل الانقلابات والثورات والخروج المسلح الذي يقومون به على الدول القائمة عدوان أم دفاع؟! لا شك أنه عدوان صارخ عن تعمد وسبق إصرار، وبالتالي سقطت أكذوبة "الدفاع" التي يتشدق بها البعض. لنخلص إلى نتيجة هي حقيقة تاريخية، وهي أن هذه الجماعة عدوانية. وإذن.. فما سيكولوجيا العدوان؟! ولماذا يتوارثونه جيلا بعد جيل؟ نتكلم عن عدوان الجماعة المنظم والمستند إلى مرجعية فكرية ودينية يتوارثونها جيلا بعد جيل..!

العدوان "Aggression" كسلوك نتاج الكراهية، وهو تعبير عن رفض ما هو قائم لإزالته جزئيا أو كليا، كما أنه نوع من العنف السلبي والإرهاب ونفي الآخر، يمارسه الأفراد، كما تمارسه الجماعات والدول على حد سواء، وبصور متعددة، بصرف النظر عن مشروعية هذه الممارسة. وقد ابتدأ هذا العدوان بابني آدم "قابيل وهابيل" حسب الإشارة القرآنية، ولا يزال مستمرا حتى تنتهي الخليقة. ومؤخرا برزت مفاهيم عدوانية جديدة كالاعتداء على الطبيعة وعلى الحيوان وعلى الكائنات.

ومع فشل تحقيق الأهداف في كل مرة، سواء للأفراد أم للجماعات يتحول هذا الشعور إلى عُقد مكبوتة، تزيد من حدة الحساسيّة تجاه الآخر، بل تكسب الفرد أو الجماعات سلوكيات عدائية، وبالتالي تتراكم في اللاوعي حتى تنفجر في سُلوك عدواني جديد، وهكذا دواليك؛ فالفشل والإحباط والتوتر النفسي والتوجس من الآخر جميعها مشاعر سلبية تجاه الآخرين، تجعل من صاحبها/ أصحابها قنبلة موقوتة ولغمًا خطرا داخل المجتمع؛ لذا كان

السلام الداخلي والتصالح مع النفس ركنا مهما من أركان الاستقرار المجتمعي؛ ولكن أنى يكون السلام الداخلي والتصالح النفسي لدى كيان ما موبوء بأحقاد القرون الغابرة..؟!

وتشيرُ بعض الدراسات إلى أن للوراثة دور في السلوك العدواني، فعادة ما يكون سلوكُ الأطفال كسلوك آبائهم عنيفًا وعدوانيًا حتى إذا نشأوا وتربوا بعيدا عن آبائهم، وأوضحت بعض الدراسات أن السلوك العدواني يمكنُ أن يرثه الإنسان من جدوده حتى الجد الرابع، لا من والديه فقط..[1]

إنَّ السلوكَ العدائي هو في أساسه نتيجة لحالة إحباط وفشل سابقة، فكلما زاد الإحباط زاد العدوان، كما في الاعتداء على النفس بالانتحار مثلا حين يبوء شاب ما بالفشل تجاه معشوقته، أو لعدم تحقيق هدف سياسي ما كما هو الشأن مع هتلر، وهو كذلك مقدمة لحالة عنف ودمار جديدة في متوالية زمنية ما لم يتم وضع حد نهائي لها. وهو ما نلاحظه بوضوح من خلال مئات الخُروجات والانقلابات السياسية التي نفذها هذا الكيان عبر تاريخه، ولا يزال، حتى وإن تبدت بعض فصائله هنا أو هناك هادئة مسالمة أو متصالحة مع غيرها، فالحقيقة غير ذلك. إن هذا الكيان يعيش حالة من الصراع الداخلي/ النفسي "صراع الذات" كما تصارع قابيل مع نفسه لوحده رغم انسحاب الطرف الآخر من المعركة ابتداء. فكون هذا الفصيل من ذلك الكيان في هذا البلد أو ذاك مسالما إنما لكونه عاجزا تمام العجز عن أية حركة يقوم بها، وليس لأنه راضٍ عن شرعية دولته القائمة. ولو قُدر للبشرية جميعًا أن تفنى في غمضة عين وبقي على وجه الأرض علويان اثنان أحدهما في مشرق الأرض والآخر في مغربها لتناحرا بالسيف على الإمامة..! هذا هو تاريخهم، وهذا هو تفكيرهم حتى تقوم الساعة. لا يماثلهم كيانٌ على وجه الأرض اليوم بذات التطرف والجنون إلا الكيان الصهيوني المحتل فقط. إنهم خطرٌ في حربهم وفي سِلمهم على حد سواء، والسلم عندهم حرب..!

---

١ ـ انظر: سيكولوجية العدوان، سابق، ١٣١.

إلى جانب ذلك أيضا العدوان هو نتيجة تماهي الفرد في الجماعة، وتلاشيه نهائيا إلى حد إنكار ذاته، كما أسلفنا، ففي هذه الحالة تحصل عملية تبخيس نفسية داخلية للفرد، مقابل تعظيم للجماعة، فيضحّي الفردُ بنفسه من أجل المجموع/ الكيان، وفي سبيل الفكرة المتسامية التي يعتقدها، وكل الجماعات الدينية تربي أتباعها على التضحية بالنفس إلى جانب المال والجهد والوقت، فتنشأ روحٌ شبابية مندفعة، صادقة الاندفاع، خاصة مع انعدام الأمل في فرص النجاح الأخرى، ومع تفشي الفقر، ومع محدودية إمكانيات الفرد المنتمي، وضعف الثقة بالذات؛ لأن الفرد غير المبدع يعتقد أن حياته ستنتهي إذا ما غادر عُشَّ الجماعة أو كيانهم، فيتشبث بالوهم أو بما تيسر من الامتيازات اليسيرة التي يحصل عليها، مقابل الاستماتة في الدفاع عن المثل العليا للجماعة التي سقته وهْمَها ونشّأته عليها؛ إنه اندفاع جنونيٌ مستميت، لا يستمد قوته من صحة الفكرة؛ بل من نفسيته المندفعة، المتأزمة في الأصل، لكي يثبت أهميته بأي صورة من الصور، وقد مارسَ عملية التبخيس الذاتي لنفسه. لهذا السبب نجد حطب الصراعات الدينية ووقودها من فئة المحرومين والفقراء وعامة الناس الذين وجدوا أنفسهم فجأة في لهيب الصراعات، باحثين عن مستقبلهم، لكنهم لم يعرفوا أن حالهم في أتون الصراعات كحال الفراشة التي رأت الضوء من بعيد، فأقبلت إليه، تتحلق حول اللهب فاحترقت وهي باحثة عن الضوء، وقدرُها الحتمي أن تحترقَ على أية حال..!

العدوان المرتد والفوضى المقدسة

تجدرُ الإشارة هنا إلى أنّ الروح العدوانية التي يتسم بها الكيان الإمامي البغيض لا تُمثلُ خطرًا على من عداهم فحسب؛ بل حتى على أنفسهم هم أيضا في حال حكموا، أو تحكموا. إنهم شرٌ في الحالتين معا على حد سواء، فلقد تطبعوا بطابع العدائية، حتى صارت جزءًا من هُويتهم وذواتهم، ولا بد من إفراغ هذه الروح العدوانية بين الفينة والأخرى على أي نحو كان. وعن هذه الجزئية تحديدا أفرد أبو الأحرار الشهيد محمد محمود الزبيري رحمه الله مبحثا خاصا في كتابه "الإمامة وخطرها على وحدة اليمن" عن خطر الإمامة على الهاشميين أنفسهم، نقتبسه هنا على طوله، لأهميته كاملا، كما ورد.

يقول: "قد يُقال أو يتبادر إلى الأذهان لأول وهلة أن إلغاء الإمامة المذهبية إنما يكون على حساب الهاشميين وضد مصلحتهم، ولكن هذا الرأي رأي خاطئ فما من خطر يهدد الهاشميين في الحاضر والمستقبل كخطر الإمامة، فكل إمامٍ ينهضُ في عائلة هاشميّة واحدة ويَلُوحُ له أن خصومه ومنافسيه إنما هم الرجال البارزون في العائلات الهاشمية الأخرى فيتجه أول ما يتجه للتخلص منهم قبل غيرهم. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن الشعب كله يشعر أن العائلات الهاشمية كلها طبقة متعالية متميزة عن الشعب منفصلة عنه دخيلة، ليست من الشعب في شيء؛ بل وكأنها أجنبية عنه دخيلة عليه.

فإذا كان التمييز في عصور الجهل مزية للسلالات الممتازة فإنه سيكون في المستقبل خطرًا كبيرًا على هذه السلالات وباعثًا على نفور الشعب منها وتعصبه ضدها ووصمه إياها بالرجعية؛ وبالتالي ستصبح على مر الأجيال معزولةً عن الشعب كأنها جالية فيه، وليست جزءًا منه، وبعد ذلك لن توجد قوة على ظهر الأرض تستطيع أن تُخضع الشعب، إلى الأبد لأقلية ضئيلة. تلك هي النتيجة المحتومة المنتظرة لمضاعفات خطر الإمامة واحتفاظ السلالات

الهاشمية بالتميز على الشعب. أما لو أن العائلات الهاشمية فطنت إلى هذه الحقائق وتنبهت لدرء هذا الخطر، وتَزَعّمَ أحرارُها مقاومة الفكرة الإمامية، والمناداة بالجمهورية، وإتاحة الفرصة المتساوية لكل أبناء الشعب كي يشتركوا في حق الحكم فإنها بذلك تنقذ وحدة الوطن وتوفر على البلاد الكثير من الويلات".[1]

حقا.. إن النارَ يأكل بعضُها بعضًا إن لم تجد ما تأكله. وإنهم إن لم يجدوا حطبا لنيرانهم المتقدة خارج كيانهم أكلوا بعضهم بعضا، إما أن يستفرغوا عنفهم وعدوانهم للخارج، أو يرتد هذا العنف وبالا عليهم، في أسوأ عدوانية مرتدة إلى الذات، وذلك بحكم فوضوية النظرية ذاتها من خلال عدة ملامح، أهمها اشتراط الخروج بالسيف لصحة الإمامة، وأيضا جواز قيام أكثر من إمام في وقت واحد، إذا تناءت المسافات بين الإمامين/ الأئمة. وكذا وجوب الخروج على الإمام الظالم، ولا شك أن مقاومة الظلم مبدأ إيجابي؛ لكن أمر تكييف هذا الظلم وتقييمه مسألة نسبية، كما هو الشأن نفسه في مسألة تنائي الأمكنة، إذ القرب والبعد مسألة نسبية، وما هو قريب من وجهة نظر فلان، هو بعيد من وجهة نظر علان، وكذلك الشأن في بقية القضايا. هذا إلى جانب العدوان المرتد على الذات في مسألة اللطم والندب والضرب والتطبير. ومن يتأمل في مسيرة هذا الكيان الإمامي عبر تاريخه يجد أن أطول فترة حُقن فيها الدم العلوي كان في فترة الجمهورية، بعد قيام ثورة ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢م، وحتى بداية حروب الحوثي في العام ٢٠٠٤م؛ بل إلى إعلان انقلابهم الأسود على الدولة في ٢١ سبتمبر ٢٠١٤م. ومن يومها عادت الدماء سيالة كما كانت بفعل عدوانهم الجنوني الذي لا يستقر..! لهذا نؤكد أنهم إلى جانب كونهم خطرا على الأمة، فهم خطرٌ أيضا على أنفسهم.

ولنتأملْ الآن في استقراء عاجل لسلسلة الخُروجات والانقلابات على بعضهم البعض في اليمن، فما من إمام إلا وخرج على مَن قبله، وما من إمام إلا وخرج عليه مَن بعده في متوالية عجيبة، ولا عجب في سيكولوجيا الإمامة في اليمن..!

---

١ ـ الإمامة وخطرها على وحدة اليمن، محمد محمود الزبيري، إصدارات وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء، ٢٠٠٤م، ٢٥.

حينَ قَام الإمَامُ القاسم العياني ٣٨٩هـ بالدعوة لنفسِه، كأول إمَامٍ من غير ذريةِ الإمَامِ الهَادي اعترضه أحدُ أحفاد الهادي، وهو الداعي يوسف بن المنصور يحيى بن الناصر بن الهادي، وجمعَ ما اسْتطاع حوله من قبائل صَعدة، التي تمردت على القاسم العياني بعد مبايعتها لها، مُستغلا خروجَه باتجاه قبائل نجران، الأمر الذي جَعل العياني يستعين بقبائل نجران، قافلا إلى صَعْدَة بها، فأخرب ديارها وطرد الداعي، وولى ابنه جعفر بن القاسم عليها!

الأعجب والأغرب معًا أنْ قدم إلى الإمَامِ القاسم العياني الحسينُ بن القاسم الزَّيدي من الطائف، فأكرمه العياني، وولاه قيادة جيشه وجعله وزيرَه المفوض؛ لكنه لم يلبثْ إلا فترةً قصيرةً ثم انقلب عليه، وأسَر ولده جعفر، والي الإمام على صَنعاء يومَها، واستولى عليها، ولم يفك رباطه إلا بعد أن ولاه الإمَامُ ولاية عامَّة من جبل عجيب في وسَط بِلاد هَمدان حتى ذمار جنوبًا بما في ذلك صَنعاء، وأعلن بعد ذلك ولاءه للداعي يوسف، بعدها اضْطُر الإمَامُ العيَّاني للتخلي عن الإمَامَةِ، واستقرَّ في مَنطقةِ عيَّان حتى مَات!

وتتواصل سِلسلةُ الدِّماء والعُنف..!

بايعَ النَّاسُ الحسينَ بن القاسم الزيدي إمامًا بعد وفاة أبيه ولا يزالُ صغيرَ السِّن يومها، وعيَّن أخاه جعفرا واليا على صنعاء، إلا أن محمد بن الحسين بن القاسم الزَّيدي ـ ابن خصم أبيه ـ قد عارضه معارضة قوية، ودخل صَنعاء لإخراج جعفر بن القاسم أخي الإمَام الجديد، فخرَّب بيوتها وأرعبَ أهلها، الأمر الذي جعلَ الإمَام الحسين بن القاسم ينتقم لأخيه ويدخل صَنعاء بنفسه ليقود المعركة، ويحرر المدينة من محمد بن الحسين الزيدي، فقتله في صنعاء، ثم عاد إلى صَعْدَة ودخلها مع قبائله وأخرب بيوتَ آل الهَادي وأتباعهم هناك، حتى انتصر عليهم، ثم دخلَ في معارك أخْرى مع قَبائل آل الضحاك، إلا أنهم قتلوه في نهاية الأمر!

وعن أحداث هَذِه الفترة وحروبها الدامية يقول المؤرخ يحيى بن الحسين: من سنة ٤٠٥ إلى سنة ٤٤٨هـ عمَّ الخرابُ صَنعاء وغيرها من بِلاد اليَمن، لكثرة الخِلاف والنزاعِ وعدم اجتماعِ الكلمة الواحدة.. وأظلم اليَمَنُ وكثر خرابُه وفسدتْ أحوالُه... وكانتْ صَنعاء وأعمالها

كالحرقة، لها في كل سنة أو شهر سُلطانٌ غالبٌ عليها، حتى ضعف أهلها وانتقلوا إلى كل ناحيَة. وتوالى عَلَيْها الخرابُ وقلت العمارةُ في هَذِه المدة حتى أصبح عدد دورها ألف دارٍ بعد أن كانت مائة ألف دار في عهد الرشيد... إلا أن صَنعاء تراجعتْ بعض التراجع في زمن الصليحيين لما اجتمع لهم مُلك اليَمن.

في سنة خمسمئة واثنتين وثلاثين، خرج الإمَامُ المتوكل على الله أحمد بن سليمان داعيًا لنفسه، وله موقعة واجه بها المعارضين له، أسْفرتْ عن مقتل خمسمئة قتيل وخمسمئة أسِير. أشار إليها القاضي محمد بن عبدالله الحميري في إحدى قصائده:

فخمس مئين حزَّ منها وريدها وخمس مئين أثقلتها قيودها
وطاروا إلى رؤوس الجبال شلائلا من الخوف منها خافقات كبودها

وقد خرج بعد ذلك بفترة، قاصدًا القضاء على من تبقى من أبناء العياني في بِلاد الأهنوم ووادعة، بعد أن عارضوه هناك بشدة، وفي الطريق وبينما هو مع نفرٍ من جماعته ترصد له القاسميون، بقيادة الأمير فليته بن قاسم القاسمي، فوثبوا عليه وأسَروه وسجنوه في مصنعة "أثافت" بالقرب من مدينة خمر في حَاشد، فغضبت له همدان، وبعض القَبَائل وجاءوا إلى ابن فليته يتوسطون لديه لإطلاق سَراحه، ففعل بعد أن كتبوا فيه قصائدَ الشعر، وتعاون معه في محنته هَذِه حتى خصومُه ضد بني عمه، ولم تطلْ له حياةٌ بعد ذلك؛ إذ مَات وقَدْ فقدَ بصره.

وعلى الرغم من قوة شخصية الإمَامِ عبدالله بن حمزة وحنكته السِّياسيَّة وسعة عِلمه، إلا أنه قد اعترضه ثلاثة معارضين من أحْفاد الأئمَّة السَّابقين له، وهم: الأمير يحيى بن الإمَام أحمد بن سليمان، الذي تحالف مع المعز بن طغتكين ضد ابن حمزة، واستحلف النَّاس له، وقَدْ دخلَ في حرب مع الإمَامِ في موقعة "الجنَّات" بعمران، انتهى به الأمرُ أسيرًا لدى ابن حمزة، فمقتولا في السِّجن.

وكان المعارضُ الثاني علي بن يحيى بن الحسين من آل الهَادي الذي خرج سنة ٥٩٦هـ، معارضًا الإمَام عبد الله بن حمزة، وملتحقا بالمعز إسماعيل بن طغتكين الأيوبي، في كوكبان، وكفل له أخذ بِلاد الشَّام، وتحالفا معا، إلا أن هَذا الحلف لم يدمْ. وذاتُ الأمر ـ أيضًا ـ مع المعارض الثالث ابن جعفر بن القاسم العياني الذي كان والي الإمَام على بني عبد وظليمة وحجور، فعزله الإمَام عنها إلا أنه رفض العَزل وقاوم فترة طويلة، ممتنعًا عن طَاعة الإمَام.

وعارضَ الإمَامَ يحيى بن حمزة ـ وهو من كبار أئمة الهَادَوِيَّة ـ ثلاثةٌ من المعارضين الطامعين بالإمَامَة في عهده، وهم علي بن صَلاح بن إبراهيم بن تاج الدين، والواثق بالله المطهر بن الإمَام محمد بن المطهر بن يحيى، وأحمد بن علي بن أبي الفتح. مع أن الإمَام يحيى بن حمزة كان على قدرٍ كبيرٍ من العلم والتفقه، إلا أن هَذِه المؤهلات لم تشفع له عند خُصومه لإعطائه مَكانته.

أمَّا الإمَامُ أحمد بن يحيى المرتضى فقد أسَره مُعارضُه علي بن الإمَام الناصر صلاح الدين، وهو ابن خاله، وأبقاه في سِجنِه سَبعَ سَنوات، ولم يطلق سَراحه إلا بعد أن كثر الشَّافعون والمتوسِّطون لديه![1]

وفي عهد الإمَام شَرف الدين انقلب عليه ابنُه المطهر بن شرف الدين، وقَدْ كان قائدًا لجيوشِه، ومفوضًا له، ودخل في معاركَ داميَةٍ، مع أبيه وإخوته، مُواصلا عهد أبيه الدموي؛ بل لقد تحالف مع العثمانيين الأتراك ضد أبيه، وبتحالفه معهم سقط حكم أبيه، ووقعت اليمن تحت حكم العثمانيين في المرة الأولى..!!

وبعد وفاته اشتجرَ أولادُه وأقاربُه؛ لأنَّ كلا منهم يدعي أنه صَاحِبُ الحَق في وراثة الإِمَامَةِ بعد والده، فقام علي يحيى بن المطهر مدعيًا الإِمَامَة لنفسِه في بِلاد ثلا وعمران وجبال عيال يزيد! وقام لطف الله بن المطهر مدعيًا إياها في نفس الوقت في بِلاد ذمرمر،[2] ونصف بِلاد الشرق! كما قَامَ عبد الرحمن بن المطهر بالدَّعوة إلى الإِمَامَة لنفسِه في بِلاد حجة وما إليها!

---

١ ـ للدكتور الشهيد عبد الكريم جدبان دراسة في هَذا الأمر اقتضبنا منها تلك الإشارات..

٢ ـ ذو مرمر، أو ذمرمر، كما ينطقونها، في بلاد السر من بني حشيش، وفيها حصن يعرف بهذا الاسم.

وعارضَه أخوه غوث الدين بن المطهر مدعيًا لنفسه الإِمَامَةَ في حصن عفار! وقام حفظ الله بن المطهر مدعيًا لنفسه الإِمَامَة في نصف بِلاد الشَّرق الأخرى التي أخذ أخوه لطف الله نصفَها! في الوقت الذي استقلَّ الإِمَام أحمد بن الحسين المؤيدي ببلاد صعدة! وعارض الكل الإِمَام الناصر الحسن بن علي بن داود غير معترف بإمامتهم جميعًا، في الوقت الذي يرفض كلُّ واحدٍ منهم إمامةَ الآخر ويردها!! بل لقد حاربَ الأخُ أخَاه في ذلك! ليأتي الأتْراكُ العُثمانيون بعد كل هَذا الصِّرَاع ويلتهمونهم جميعًا حين بَسطوا نفوذَهم على اليَمن، فيأسرَهم القائدُ التركي حسن باشا، ويرسلهم إلى استانبول أسرى سنة ٩٩٤هـ، وهناك قضوا نحبَهم..!

وحين توفي الإِمَام المؤيد ابن القاسم، ثاني الأئمَّة القاسميين أعْلن ثلاثةُ أئمة إمامتَهم، وأحقيتَهم في الحُكم، وهم: إسماعيل بن القاسم الذي كان واليًا على ضوران وريمة وعتمة، وأحمد بن القاسم، والي صعدة، ومحمد بن الحسن بن القاسم الذي كان متوليًا لمناطق اليَمَنِ الأسْفَل، وبعد جَدلٍ طويل ظفر بها الإِمَام المتوكل على الله إسماعيل الذي دام حكمُه ثلاثة وثلاثين عامًا. وقَدْ خلفه ابنه المؤيد في الحكم عقب وفاة والده عام ١٠٨٧هـ.

وأثناء حُكمه خرج عليه كل من عبدالله بن عامر بن علي الحسني، عام ١٠٥٤هـ داعيًا لنفسه في حوث، وفي عام ١٠٦١هـ خرجَ عليه أيضا محمد بن علي الحيداني، مدعيًا لنفسِه الإِمَامَةَ في بِلاد حيدان، ثم مدعيًا أنه المهدي المنتظر! وأيضا خرج عليه محمد بن علي الغرباني سنة ١٠٧٥هـ، في صنعاء؛ أما إبراهيم بن محمد بن عزالدين المؤيدي فحكايته مع الخروج على الإِمَامِ أشبَه بالأسطورة والخرافة؛ إذ ادعى لنفسِه الإِمَامَةَ أولا يوم خروج المتوكل نفسِه، ورأى أحقيَّتَه بها، لأنه سَبقه بساعة أو سَاعتين، ولما لم تلق دعوتُه صدىً واسعًا أمَامَ دعوة المتوكل راسَله وأقرَّه على إمامتِه، معلنًا عن تنازله هو له؛ إلا أنه بعد فترةٍ خرجَ عليه إلى بِلاد برط، وأعلنَ إمامتَه من هناك، فلم يجبْه أحد، ولما لم يجبْه أحدٌ سَكت فترة، وخرج بعدَها إلى خولان صَعْدَة وادعى الإِمَامَةَ من هناك، فلما علم بذلك الإِمَامُ المتوكل أرسَل له ابن أخيه أحمد بن الحسن، فعلم بذلك المؤيدي وهربَ إلى منطقة أخرى، معلنًا الصلحَ والبيعةَ للإمام من جَديد. وسَكت فترة إلى العَام ١٠٦١هـ وادعى الإِمَامَةَ من جديد للمرة الرابعة،

مُستغلا خروج أحدِ المشايخ على الإمَامِ حينها، فأرسَل له الإمَامُ المتوكلُ عددًا من الجنود، ولما عجز عن مواصَلة دعوته أظهر الندمَ وأعلنَ الصلح، وأجزلَ له الإمَامُ العطاء "الزَّلاج" كما أقطعَه ـ أيضًا ـ بِلاد رُغافة بصعدة. ولم يتوقف عند هَذا فحسب؛ بل لقد ادعى الإِمَامَة للمرة الخامسَة في عهد إمامة المتوكل نفسه، حين علم بوفاة أحَد الأشْخاص وكان اسمُه مشابهًا لاسم الخليفة فسَارعَ على الفور لادعاء الإمامة![1]

كما خرج عليه ـ أيضا ـ عاملُه على صَعْدَة علي بن أحمد بن القاسم "خرج عليه والده سَابقا" محتجًا بمرض الإمام، وأنه لم يعد صَالحا للإمامَة، إلا أن دعوته هَذِه لم تلق أية اسْتجابة.

وعقب وفاة الإمَامِ المتوكل نفسِه خرجَ بعده ثمانيةُ أئمة، شاهرين سيوفهم، داعينَ لأنفسِهم بالإمامَة، وهم: أحمد بن الإمَامِ المتوكل في شهارة، والقاسم بن الإمَام المؤيد في الأهنوم، ويحي بن الحسين بن المؤيد بالله في عُذر بحاشِد، ومحمد بن الإمَام المتوكل في ضوران، والحسين بن الحسن بن القاسم في رداع، وأحمد بن إبراهيم بن محمد المؤيدي في العشَّة، ومحمد بن علي الغُرباني في برط، والأمير عبد القادر بن الناصر بن عبد الرب في كوكبان!

وقد عَمَّت الفوضى والحروبُ كل أنحاء اليَمَنِ الواسِعة في تلك الفترة، بسبب فوضى الدَّعوَة للإمامةِ من قبل هَؤلاء، فانتُهبت القُصورُ والأسْواقُ والمدنُ، وقُطعت الطرقُ وعمَّ الصِّرَاعُ أرجاءَ البلاد، وأصبحَ النَّاس في خوفٍ لا نظيرَ له قبل ذلك، ودامَ الصِّرَاعُ فترةً طويلة.

وعلى الرغم من أن الإمَامَ أحمد بن الحسن هو الذي حسمَ الأمر لصَالحه، ملقبًا نفسَه بالمهدي، بعد جدلٍ طويلٍ ومفاوضاتٍ كثيرة بين الداعين، وذلك لقوة شَخصيتِه ومكانتِه من الإمَام المتوكل نفسِه سَابقًا، ودورِه الكبير أيامَّه، إلا أن الأوضَاعَ قد بدأت تتفلتُ في عهده، وقَدْ زاد طمعُ الأبناء والأحفاد وأولاد العم، وكلٌ يطمع فوقَ ما كان له من سَابق.

---

١ . انظر: بهجة الزمن في تاريخ اليمن، يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد، تحقيق: د. أمة الغفور عبد الرحمن علي الأمير، مؤسسة الإمَام زيْد بن علي الثقافية، ط:١، ٢٠٠٨م، ٣٧ فما بعدها..

ومن العجب العُجاب أنْ تمَرّدَ عليه ابنُه في بِلاد اليَمَنِ الأسْفَل، بسبب عدم الموافقة له على ضَمّ بعضِ المِنَاطِقِ التي كانتْ خارجَ ولايته إليه، طامعًا بالمزيد من الإقطاعيَّات، وأعلنَ بيعة ابن عم والده الداعي القاسم بن المؤيد ضدَّ والده؛ الأمر الذي اضطرَّ الإمَام المهدي أحمد أن يرسلَ إليه حملة عسكرية بقيادة أخيه علي بن أحمد بن الحسن لمحاربته وإخضاعِه، وبعد مفاوضاتٍ بين الطرفين التقى والدَه وتَصَالحا، وأطلقَ يد ابنه في الأوامر والنواهي، مضيفًا إليه بِلاد حيس من تهامة، إلى جانب ما تحت يده من بِلاد تعز، بعد أن كتب إلى والده مع عمه الحسين بن الحسن أنهما ما داما قد بايعاه وخطبا له واعتمدا النُّقود التي ضَربها، فما عليه إلا أن يتركَ لهما بلادهما يتصرفان فيها كيفما شاءا، دون تدخل منه.١!

وإلى جَانب من تمرَّد عليْه ـ أيضًا ـ القاسِم بن المؤيد، ملقبًا نفسَه بالمنصور، ومنافسًا إيَّاه على الإمَامَةِ في شهارة، طالبًا من الإمَامِ أن يضمَّ إليه بِلادَ عُذر إلى جَانبِ ما تحتَ يده من بِلاد الشَّرفين وحجَّة والظفير وكحلان عفار والسَّودة وظليمة والأهنوم..٢

وبعد وفاةِ الإمَام أحمد بن الحسن، ومع بداية إعْلان الإمَامِ محمد بن المتوكل الذي لقّب نفسَه بالمؤيد، أعلنَ ثمانيةُ أئمَّةٍ أحقيتَهم بالإمَامَة، وهم: القاسم بن الإمَام المؤيد في شهارة، ملقبًا نفسَه بالمنصور، والحسين بن الحسن في رداع، ملقبًا نفسَه بالواثق، وعلي بن الإمَام المتوكل في إب ملقبًا نفسَه بالناصر، والحسن بن الإمَامِ المتوكل في تهامة، وعلي بن أحمد القاسم في صعدة، وعبد القادر بن الناصر بن عبد الرب في كوكبان، والسيد محمد علي الغرباني، الذي قَال بإمامتِه في "الزكاة والحقوق" فقط.!

وعقب وفاة الإمَامِ المؤيد بالله محمد بن المتوكل إسماعيل، افترقت أجنحة الحكم المتصارعةِ إلى شَلليات وجَماعات، وقَدْ اسْتقلَّ كلُّ أميرٍ على منطقة بعينها، فكان إبراهيم بن المهدي مُسْتقلا بولاية ذمار، وأخوه إسْحاق أميرٌ مستقل على حبيش وذي السفال، وأخوهما الثالث

١ ـ انظر: اليمن في ظل حكم الإمَام المهدي، المعروف بصاحب المواهب. د. محمد علي دبي الشهاري، الجيل الجديد، ط:١، ٢٠٠٩م، ٦١.

٢ ـ نفسه، ١٥٦، فما بعدها..

محمد بن المهدي متمركزٌ في المنصورة من بِلاد الحجرية. كما كان إلى جانبهم كلٌ من حسين بن علي المتوكل في إب والعدين، وحسين بن الحسن بن القاسم في رداع وما تلاها، وحسين بن محمد بن أحمد بن القاسم كان واليًا على عمران وحاشد، وقاسم بن الإمَام المؤيد على شهارة، وعلي بن أحمد بن القاسم على بِلاد الشَّام.[1] وكان كل واحد من هَؤلاء أشبَه بإمامٍ بنفسِه.

ونتيجة لهذا التشظي فقد أعْلن أكثرُ من إمَام الإمَامَةَ لنفسه، سَواء من آل القاسم أم من غيرهم، فأعلن محمد بن أحمد صَاحِب المنصورة "المواهب لاحقا" الإمَامَةَ ملقبا نفسَه بالناصر. وأعلن يوسف بن المتوكل الإمَامَةَ لنفسِه في ضوران، مدعيًا أن الإمَامَ المؤيد قد أوصَى بالإمامةِ له وهو عَلى فراش المرض، وأعلن الحسين بن محمد بن أحمد بن القاسم الإمَامَةَ في عمران، وتلقب بالمتوكل، وأعلن علي بن أحمد بن القاسم الإمَامَة في صعدة، والحسين بن عبد القادر في كوكبان، والسيد علي بن الحسين الشَّامي الخولاني في خولان، والسيد عبدالله بن علي بن خالد في بِلاد الشَّرف تحت شهارة. وظفر بها الإمَام الناصر محمد بن أحمد الذي عرف بصاحبِ المواهب لاحقًا، وقَدْ عُرف قبلها بصاحبِ المنصورة، ودام حُكمه فيما بين ١٠٩٧ ـ ١١٣٠هـ.

وعليه تدور الدائرة، فقد خرجَ عليه في حُكمه آخرون؛ إذ عَارضَه يوسف بن المتوكل سنة ١٠٩٨هـ، ثم لحقه بعضٌ من إخوته وأبناء أعمامه، والأعجب ـ وما ذلك بعجب عند هَؤلاء ـ خروج ابنه عبدالله بن النَّاصر عليه، بعد أن أخضع له إب وجبلة، وكان طامعًا فيها، إلا أن والدَه عيَّن عَليها أخَاه إسماعيل، ما جَعل الابن عبدالله يكاتب يوسف بن المتوكل ويبايعه ضدَّ أبيه؛ بل لقد حَاصره يومًا ما بعد ذلك مع آخرين، مطالبين إياه بالتَّنازُل عن الإمَامَةِ بقوة السِّلاح، فأسَره والدُه مع من أسَر من الخارجين عليه، ثم كان التصالحُ والسَّيطرةُ على الوضع الذي بدأ بالتفلت. كما أعلن الحسين بن القاسم إمامته من شهارة، والخروج على الإمَام الناصر، مستغلا التذمر السَّائد في الأوسَاط العَامَّةِ من سِيَاسَة الإمَام الناصر

١ ـ بلاد الشام من أسماء صعدة وضواحيها سابقا.

كما خرجَ على الإمَامِ المهدي السَّاحرُ أحمد المحطوري الحسني المكنى بأبي طير،١ والذي لقب نفسه بالمنصور، عام ١١١١هـ، وقَدْ ادعى معرفتَه بالسِّحرِ وعلومِه، فتبعتْه جَمَاعَةٌ من عامَّة القَبَائل، سُمُّوا بالمجاذيب، لانجذابِهم إليه، وانتشروا في أرجَاء البلاد، وخربوا الكثير من الحصون والقلاع في بِلاد حاشد وبكيل، وأخرجوا جنودَ وأتباع الإمَام المهدي، وسيطروا بعد ذلك على ميناء اللحية، ثم حرض، وبايعه أهلُ صعدة، فجهز له المهدي جيشًا قوامه ثلاثين ألفا، وأرسَلَ مفاوضًا، في الوقت الذي كان السَّاحرُ قد أقنعَ قبائل عسير القحْطَانيَّة بالخروج معه، فخرجوا معه، ثم اختلفَ معهم، وقتله أحدُهم وأرسَلوا برأسِه للإمام المهدي! وتذكر روايةٌ أخرى أنه تم إعدامُه في باب المنصورة بصعدة، على يد علي بن أحمد من قبيلة سحار، وقد خَاف هو وقبيلتُه من مَعرَّة جيش الإمام المهدي ومداهمته لبلادهم، كما فعل في حجَّة وحبور والشَّرف، حيثُ نهبوا جميع ما فيه وقتلوا الأطفال واسْتباحوا النسَاء وسَجنوا المشتبه فيهم، وكذا أخربَ قرية المدائر في حبور، حتى خلتْ من سُكانها بين قتيل ومُشرد.٢

وذكر الواسِعي في تاريخِه أن "الغرامَة" التي كلفت الإمَام المهدي في حَربه هذه وصلتْ إلى سَبعين مليون ريال، وأنَّ القتلى قد بلغوا من ١٢ رجب إلى شهر شوال عِشرين ألف قتيل!٣

ومن الفوضى المثيرة للسُّخرية والغَرابَة، ما كان من أمْر عمِّ الإمَام الناصر "الحسين بن الحسن" فحينَ تمردتْ قبائلُ يافع على الإمام، أعدَّ الإمَامُ الناصر جيشًا كبيرًا مبالغًا فيه لحرب يافع، وعيَّن عليه عمَّه الحسن بن الحسين أميرًا على الجيش، وفي رداع رأى أن العَدد كبيرٌ، وما داموا تحتَ امْرته فلمَ لا يقررُ خلعَ ابن أخيه، معلنًا الإِمَامَة له؟!!

١ . يتصل نسبه بالإمام القاسم بن علي العيَّاني، ولذا تعاضد القاسميون أجمعُهم ضده، متناسين كل الخلافات التي كانت بينهم حينها.

٢. اليمن في ظل حكم الإمام المهدي، سابق، ٢٠٧.

٣ . تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن في حوادث وتاريخ اليمن، عبدالواسع بن يحيى الواسعي، مكتبة اليمن الكبرى، صنعاء، ط:٢، ١٩٩١م، ٥٥.

وفعلا.. كانَ ذلك. فبدأ بتوجيه الجيش بالتَّمرد على الإمَام الناصِر؛ الأمر الذي جعلَ الإمَام الناصر يجهزُ جيشًا آخرَ بقيادة أخيْه المحسن لمواجهة عمِّه، فأُضرمتْ نيران الحرب، ودارتْ رحاها، حتى انتهى به الأمرُ أسيرًا سجينًا في قلعة كوكبان.!١

وذكر الدكتور العمري أن الإمَام المنصور حسين بن القاسم، قد تحالف سنة ١١٣٩هـ مع علي بن قاسم الأحمر، رئيس حاشد، وناصر جزيلان رئيس بكيل وآخرين ضد أبيه القاسم بن الحسين في قصَّة طويلة، وقَدْ خَلَفَ أباه الذي ماتَ بصنعاء في نفس العام..٢

وإلى جانب من خرجوا على الإمَام المنصور حسين بن المتوكل أخوه الأمير أحمد حاكم تعز يومَها، وجرى بينهما أكثر من حرب، إلا أنه لم يستطع الانتصارَ عليه. ويُقال: أن سلطان لحج يومها قد اهتبل الفرصَة واستقل بمنطقة الحجرية من تعز ضمن سلطنته..

وخرجَ على الإمَام المهدي عباس بن الإمَام المنصور عقب توليه الإمَامَة مُباشرة بعد وفاة أبيه، السيد أحمد بن محمد بن حسين شرف الدين، ت: ١١٨١هـ، من كوكبان، ملقبًا نفسَه بالمؤيد بالله، وأرسَل الإمَامُ المهدي إليه وفدًا مفاوضًا يدعوه للمبايعَة والدخول في الطاعة، تاركا له بِلاد كوكبان، وأيضًا حفاش وملحان، إلا أنه رفض، معللا أنَّ دعوتَه لم تكن لأمرٍ دُنيوي، فأرسَل إليه المهدي جيشًا جرارًا عليه أحد عشر أميرًا، وأحاط الجيشُ بمدينة كوكبان، وهُزم ابنُ شَرف الدين، وأعلنَ بعد ذلك البيعةَ للإمام المهدي، ولم تدمْ هَذِه الاتفاقيَّةُ طويلا، ففي العَام التالي، عادت الحربُ من جديد، وأرسَل المهدي جيشًا لإخضَاع أمير كوكبان، وهُزم مرة ثانية، داعيًا إلى الصُّلحِ مع الإمَام من جديد والاعتراف به.!

وللعلامة ابن إسْحاق صولاتٌ وجولاتٌ في عمليَّة الخروج على الإمَامِ المنصور علي، وهِي أكبرُ من أنْ تختزلها هَذِه العجالة؛ إذْ خرج عليه مغاضبًا إلى أرحب، غضبًا لله ولأرحامِه كما زعم، بعد وفاقٍ حميمٍ بينهما لخمس سَنوات كاملة. ذكر لطف الله جحَّاف أن أسبابَ هَذا

١ . بهجة الزمن، ٢١٤، فما بعدها..

٢ . انظر: تاريخ اليمن الحديث، الدكتور حسين عبدالله العمري، ط:١، ١٩٨٤م، ١٤٧

الخروج ودوافعه عدم إنصافِ الإمَامِ له من عامِله على حيس من بِلاد تهامة؛ حيثُ زاد في مقدار الضَّرائب المفروضة هناك على وكيل ابن إسْحاق في تجارته!

وخرجَ له الإمَامُ في جيشٍ إلى بني جرموز، ووقعت مصادماتٌ بينهما، إلا أن هَذِه الوقعة لم تحسم النتيجة لأحد. وأضَاف لطف الله جحاف: أن الإمَامَ قد رأى مصالحتَه سِياسيًا فأرسل إليه وفدًا من بلاطه إلى أرحب للتفاوضِ معه، فقبلَ ابنُ إسْحاق المصالحةَ مشترطًا على الإمَامِ "خيلا وعبيدا وجواري ودراهم تجري له كل شَهر، ومصروفات لمن يعول تترا، وكيْلات، واسْتماع الشفاعات، والانفراد بوصاب وحيس، وليس للدولة إلا الكاتبُ كما كان العهدُ عليه مع الآباء، فأجابه الإمَامُ إلى ذلك المرام، فاشترط آخرًا البقاء في أرحب، فأهمَله الإمَام وتركه في العناد".١

وقد خاضَ الطرفان بعد ذلك جولاتٌ من الحربِ والمفاوضاتِ والرحيلِ حتى انتهى أمرُه بالوفاة عام ١٢٢٠هـ. وتتالت على الإمَامِ الخروجاتُ الكثيرة من برط وخولان، حد حصاره في منزله، ولم يحرك ساكنا..

وقاد الأميرُ أحمد بن المنصور علي انقلابًا مدبرا مع بعض أعوانه ضد والده، عام ١٢٢٣هـ، فحاصره في دار الحكم وحاصر رجاله، وحصلتْ مناوشاتٌ كبيرة بين الأتباع، ولولا توسط الإمَامِ الشَّوكاني لدى الإمَامِ المنصور "الأب" بالتنازل عن الإمامة لابنه لكانت حَلت الكارثةُ بالجميع يومها، ففعل الأبُ واستمع لنصيحة الشوكاني. وأصبح الابنُ إمامًا بقوة الغلبة.٢

وما هِي إلا أيام قليلةُ حتى قَام الأمير عبدالله بن المنصور أخو الإمَامِ الجديد بمحاولة الانقلاب على أخيْه، فأرسلَ جَمَاعَة من جنده للإطاحة بدار الإسْعاد "دار الحُكم" والتمركز في أماكن أخرى من المدينة، إلا أن الإمَامَ أحمد تدارك الأمر، فصرف رجالَ أخيه، وتصالحَ معه. وبعد أيامٍ تمرد عليه أخوه الآخر محمد، في ذمار، وحدثت مناوشاتٌ يسيرة، استطاع

١ ..درر نحور الحور العين، مصدر سابق، ٢٧٣. وانظرها في البدر الطالع، ١/٢١.

٢ . خلال فترته أيضا حاول الأمراء من بيت شرف الدين في كوكبان الاستقلال ببلاد كوكبان، مستعينين بالشريف حمود الذي وصلت قواته إلى كوكبان لمساعدة بيت شرف الدين، إلا أنه قمعهم وثبت الحكم له..

الإمَامُ بعدها استمالة القَبَائل التي في معسكر أخيه، وأقنعهم بضرورة التَّصالح، واستدعى الإمَامُ أخاه "محمد" وأعطاه ما طلب من المال وتصالحا بعهود ومواثيق!١ ، كما قامت العديد من الانقلابات بعد ذلك ضده، في خولان وكوكبان ونهم وغيرها..٢

وفي عهد الإمَامِ المهدي عبدالله، خرج عليه عمُّه يحي بن المنصور علي والتجأ بقبائل أرحب، وسَار المهدي بجيش إلى أرحب وهزمها، وفرَّ منها عمُّه إلى تهامة.

وخرج عليه ـ أيضًا ـ السيد العالم أحمد بن علي السراجي، أحد أكبر عُلماء صَنعاء آنذاك، عقب قتل الإمَام المهدي للفقيه الجارودي المتطرف محمد بن صالح السماوي، المعروف بابن حريوة حين انتقد سِيَاسَة المهدي، إلا أن القَبَائل التي ناصرتْه قد خانتْه وتفرقتْ من حوله.

ومن عجيبِ أمر الإمَام علي بن المهدي عبدالله الذي خلف والدَه في الحكم أنه حَكم وعُزل أربعَ مرات في حَياته، وغيَّر لقبَه ثلاث مرات أيضًا، وبلغ الجوعُ والمرضُ في عهده مبلغًا لم يُعرف من قبل، فقد كانت الجنائزُ التي تخرجُ من أبوابِ صَنعاء لا تقل عن مئة وخمسين جَنازة في اليوم؛ بالإضَافة إلى نحو ثلاثين ممن يموتون من الجوع. ٣

وممن خرج عليه ـ على الرغم من هَذا السُّوء في الأوضاع العَامَّة ـ السيد قاسم بن منصور الذي غاد صَنعاء مغاضبًا إلى تعز التي اتخذها مقرًا لدعوته وقَدْ تلقب بالهادي. وأيضا علي

---

١ . تاريخ اليمن الحديث للعمري، سابق، ١٦٤.

٢ . قَال عنه الواسعي في تاريخه: ".. وقَدْ ملأ بيتا من الذهب والفضة، ومن جميع أنواع الملبوسات والأحجار النفيسة من اللؤلؤ والزبرجد والياقوت، ومن آلة السلاح ما يفوق عن العد، ومن آلة الطب وعقارتها ما تعجز عنه الملوك، حتى إنه وصل إليه طبيب فاحتاج إلى ريش الذباب الأخضر، وهو من المستحيلات، فأعطاه المتوكل ملء إناء، وغير ذلك مما يطول ذكره، والمسك والعنبر والساعات ملء الصناديق، وجميع الذخائر والقماشات الغريبة الوجود والخيل الكثير.." تاريخ اليمن للواسعي، ٦١.

٣ . انظر تاريخ اليمن الحديث، العمري، ٢٤٧. وانظر أيضا: فترة الفوضى وعودة الأتراك إلى صنعاء، د. حسين العمري، دار الفكر، دار الحكمة اليمانية، ط:١ ١٩٨٦م، ١١. وهو الإمام الملقب بعلي مقلى. وقد أشار إليه البردوني في إحدى قصائده: بقوله:

أبدو "علي مقلى" بدون إمامة وبدون مقلى

وقَدْ حدثت مجاعات مشابهة لها للناس في عهد الإمَام يحيى أكثر من مرة، في الوقت الذي كان ينام على كنوز من الذهب والفضة وعلى مئات مخازن الحبوب، ولم يصرفها للناس، فكان ابنه الحسن يقوم بتصدير بعضها إلى الخارج لحسابه الشخصي وهِي المحسوبة على بيت المال. وحين تقدَّم إليه أحد الوجهاء بمذكرة شرح له فيها حالة النَّاس التي بلغت بهم حد الموت من الجوع، فأجاب: من عاش فهو عتيق، ومن مات فهو شهيد! كما أن هناك أجوبة أخرى تجري على لِسَان النَّاس من هَذا القبيل تعكس مدى سادية ووحشية هَؤلاء الذين يعتبرون أنفسهم ولاة وأوصياء على الشعب!

المنصور علي بن المهدي عبدالله من بيت المؤيد، وهو من تلاميذ العلامة السراجي وأتباعه، داعيًا إلى الأمرِ بالمعروفِ والنهِي عن المنكر.[1]

وفي نهايةِ القَرْن التاسع عشَر وبداية القَرْن العشرين الميلاديين، وبينما كانت الخلافةُ العثمانيَّةُ متواجدةً في اليَمَنِ قَامَ إلى جانبها أيضا أكثر من إمَام في وقت واحد، كلٌ منهم يدعي الإِمَامَةَ لنفسِه، جامعًا ما استطاع أن يجمعَ من النَّاسِ حوله، بالحق وبالباطل، فقد قَام الإمَام المحسن بن أحمد والإمام محمد بن عبدالله الوزير والإمام أحمد بن هَاشِم والإمام الهَادي شَرف الدين، داعين لأنفسهم بالإمامَة. وقَدْ تكلم عن هَذِه الواقعَة العبثيَّة شِعرًا، وبصورة سَاخرة، الشَّاعر أحمد القارة، في قصيدة "شَعبية" مطولة، نذكرُ بعضًا منها. قَال في مطلعها أولا:

ضاعت الصعبة على الخلفاء خبط عشوا والسراج طفا
لا تصدق أن ثم وفا حسبنا.. لا إله إلا الله

حتى يقول:

والذي في "السر"[2] كان إمَام قد نبع منها بغير كلام
وزحر زحرة بغير وحام ونزق.. لا إله إلا الله
وابن شمس الحور[3] في "غُرَبَة" قد دعا حتى جته الشحبة
وخرج منها إلى الرحبَة لا لشيء.. لا إله إلا الله
والإمام محسن إمَام عظيم بالخلافة والشروط عليم
وهو في حصن الغراس مقيم منتظر.. لا إله إلا الله
وابن غالب أين جا وضوى؟ قد وصل داخل برط وذوى

---

١ . ذكر المؤرخ الكبسي حال الدَّولَة عشية تولي الإمَام المهدي الإِمَامَة بقوله: "لم يبق إلا المدخر في خزائن بيوت الأموال من آلة الحرب والذخائر. فكان ينفق منها ويعول عليها، وموارد البلاد انقطعت، وكان الجنود يهجمون عليه ويتسلطون في المطالب، ولم يكن له عليهم يد". الكبسي، اللطائف السنية، ٣٠٣هـ.

٢ . السر منطقة ببني حشيش، مشهورة بجودة أعنابها، وبنو حشيش اسم لم يعرف إلا منذ عصر الإسلام، وهو اسم فارسي فر إليه أيام حركة قيس بن مكشوح المرادي فصاهرهم وانتسب إليهم، ثم سميت القرية باسمه بعد ذلك، وحين توسعت حملت معها نفس الاسم، وكان اسمها قبل ذلك بنو سخيم.

٣ . شمس الحور: بنت علي بن إسماعيل الشهارية، من نساء بلدة شهارة بحجة. وكانت من معاصرات الشاعر، أديبة وشاعرة، وواعظة فصيحة، اشتهرت بالعلم والأدب، وتوفيت عام ١٢٩٨هـ. لها: كتاب "مواعظ ووصايا" وقصيدة الريحانة: في التوحيد. تُرجم لها في هجر العلم في اليمن، وأعلام المؤلفين الزيدية.!

ورجع ضل الطريق وغـــوى لا رجــع.. لا إله إلا الله
وابن شُوع الليل أين سنحت قدرة الله به؟ وأين درجت؟
كودته هل مات أو نجحت؟ ســـــاد.. لا إلــه إلا الله
وأميـــر الـــمـــؤمنين معيض قد جعل فيها طرق وفريض
شاربه قالوا طـويـل عريـض مجعلي[1] .. لا إلــه إلا الله
كلهم قامــوا بغيـــر رُكب[2] من مَلك رطلين نحاس ضرب
والوقيد قالوا كُبا[3] وقــصـب وقشاش .. لا إلـــه إلا الله
ورعايا ذا الزمـــــــان همج خلوا الدنيا مـــــلان رهج
من دعاه المام[4] ضحك وزبج عسبوا.. لا إلـــــه إلا الله
فضحونا آل عبـــــد مناف[5] كل يوم ناموسية وسجاف
وفراش زوجين بساط ولحاف ديـــولة.. لا إلـــه إلا الله
شيطـــنة قامت من الفقهاء عاونوا إبليس حيـــن ســهـا
دخلـــوا للشيطنة بـــدهـــاء مفجعين .. لا إلــه إلا الله[6]

وما حال هَؤلاء إلا كحال ممالك الأندلس أثناء تَسَاقُطها، وصوَّرها الشَّاعر ابن أبي شرف، قائلا:

مما يزهـدني في أرض أندلـس أســماءُ معتمد فيـهـا ومعتضد
ألقابُ مملكة في غيرِ موضِعها كالهر يحكي انتفاخًا صولة الأسد

١ . لقب يطلقه الإماميون على القبيلي من غير آل البيت..
٢ . كناية عن ضعف الإمكانيات..
٣ . مخلفات الأبقار، يُقرص ويجفف، وكان يستخدمه الأوائل في الوقود والتدفئة.
٤ . تخفيف كلمة الإمام.
٥ . يقصد بهم الأئمة المتصارعين من آل البيت.
٦ . في العَام ١٩٦٩م، وإبان تدهور الوضع في اليمن، وسقوط مدينة صَعْدَة بيد الملكيين، عارض هَذِه القصيدة الشَّاعر محمد الذهباني بقصيدة أخرى، قَال في مطلعها:
سقطت صَعْدَة علي العمداء بعدما سالت دماء الشهداء
والشيوخ والجيش والعقداء لا اله إلاّ الله

وخرج محمد بن يحيى على الإمَامِ علي بن المهدي عبدالله، بعد أن تقدم من رَيمَة إلى آنس بخمسة عشر ألف مُقاتل، ومدعومًا من الشريف حسين بن علي حيدر،١ واعترك جيشُه بجيش المهدي علي في قرية ضَاف، ثم خِدار، خارجَ صَنعاء، ولم تحسم المعركةُ النصرَ لأحد، إلا أن المهدي اضْطُر للتنازل لمحمد بن يحيى الملقب بالمتوكل عام ١٢٦١هـ.

وعلى الرغم من المكر السِّيَاسِي الذي تميز به الإمَامُ محمد بن يحيى، إلا أنه قد أقدم قبيل انتهاء فترة إمامتِه، في العَام ١٢٦٥هـ على تسْهيل عمليَّة دُخول الأتراك إلى صَنعاء، فقد نزلَ إلى تهامة على رأسِ وفدٍ من كبار مقربيه وحاشِيته، ومعه الهدايا الثمينة لهم، والتقى توفيق باشا، والي الحجاز يومها، والشريف محمد بن عون "شريف مكة" وأيضا الشَّريف حسين بن علي حيدر، كما تذكر بعض المصَادر، واتفقوا على أن يكون الإمَامُ تابعًا للباب العالي في تركيا. وأن يتم تقسيمُ عائدات البلاد إلى قسمين، نصفٌ يدفعه لخزانة الباب العالي، ونصف تحت تصرُّفه، ينفقه على المصالح العَامة. ووضع حاميَة تركية في صَنعاء بعددِ ألف جندي من القوات النِّظامية. ورابع هَذِه النقاط أن يحتفظ الإمَام بمصروفاته الشَّخصية، مبلغٍ وقدره سبعة وثلاثين ألف دولار شهريا، تُخصم من العائدات قبل قسْمتها..٢

وقبل ذلك كانتْ قد بدأت الاضطراباتُ والخروجاتُ عليه؛ حيثُ خرج عليه أولا أبناء ريمة، وحاصروا عامله الحاج عبدالله الحبابي عليها، فذهبَ بنفسِه إليها وفك عنه الحصارَ وعين خلفًا له القاضي أحمد بن حسين العنسي، وكذا أهالي زبيد بتهامة فقد حاصروه حصارًا شديدا هناك.

---

١ .كان الشَّريف حسين طموحًا لأن يقوم بإجلاء البريطانيين من عدن، إلا أن ذلك غير ممكن بالنسبة له وحده من إقليم عسير ما لم يتحالف معه الإمَام في صنعاء، وقَدْ حاول إقناع الإمَام المهدي إلا أنه لم يتفاعل معه، الأمر الذي جعله يساعد أقرب الخارجين عليه لتنفيذ مشروعه الوطني لاحقا، فكان محمد بن يحيى أقرب من ارتآه، إلا أن ذلك ما لم يكن، فقد خذله الإمَام الجديد أيضا في مشروعه الوطني.

٢ . انظر: الأوضاع السياسية الداخلية لليمن في النصف الأول من القَرْن التاسع عشر، صادق محمد الصفواني، وزارة الثقافة والسياحة، ط:١، ٢٠٠٤م، ٢٥٣. وقَدْ ذكر الباحث أن الإمَام نزل إلى الحديدة بطلب من توفيق باشا وابن عون، للتفاوض معه، كما أشار إلى رسَالَة للشريف محمد بن عون إلى السلطان العثماني؛ ذكرت أن المبلغ الذي تم تخصيصه للإمام هو مئة وخمسة وأربعون ألف ريال فرانصي "ماريا تريزا" سنويا، مشيرا إلى أن صرفه يقترب من صرف الدولار يومها..

وخرج عليه ـ أيضًا ـ رفيقُه السَّابق وأحدُ أقربائه الأمير حسين بن المتوكل في ذمار، ودعا لنفسه بالإمامَةِ، ولقَّب نفسَه بالهادي، وتقدم لحصار ذمار، عام ١٢٦٤هـ إلا أن أغلب من كانوا معه قد تفرقوا عنه، وقَدْ حبسَه الإمَامُ بعد ذلك في صَنعاء! كما صحبَ معه النقيب أحمد ثوابه الذي تمرد عليه بعد اتفاق بينهما على أن يُقطعه عمالة يريم.. ولم تدم له حياةٌ طويلة؛ إذ قَام المهدي علي في ولايته الثالثة بسجن آل المتوكل جميعًا في صَنعاء ومصادرةِ أموالهم لبيت المال، وإعدام الإمَام المتوكل يوم ٢٤ محرم عام ١٢٦٦هـ في السجن، ولكن ما هِي إلا أشهرٌ قليلة وتمَّ خلعُ الإمَامِ علي بن المهدي نفسه، بسبب قيامِ إمَامٍ آخر منافسٍ له، هو المنصور أحمد بن هَاشِم الويسي، الذي لم يدمْ حكمُه عدا أشهرًا قليلة فقط، لتدخلَ البلادُ أزمةً خانقةً جديدة مع وجود الأتراك في حملتهم الثانية آنذاك، وعقبها عاد الإمَامُ علي بن المهدي إمامًا من جديد للمرة الرابعة؛ فخرج بعد أشْهر لتفقد أحوال يريم؛ فاهتبل الفرصَةَ عليه ابنُ عمه غالب بن محمد بن يحيى المتوكل، مدعيًا الإمامةَ لنفسِه، وملقبًا نفسَه بالهادي.! وقَدْ عيَّن على صَنعاء وكيلا له فيها هو أحمد بن عبدالله "شُوع الليل" من آل أبي طالب من الروضة، فرغب الأخيرُ في الإمامة! فأعلن نفسَه إمامًا، ولم تتجاوز إمامتُه على الروضة فقط!! وظهر إلى جانبه أئمة آخرون، ثم مَشايخ قبائل، آلت إليهم السُّلطة في صَنعاء، أفضى الأمر بالنهاية إلى استدعاء العثمانيين للحكم فيها من قبل البعض، وفعلا دخلها العثمانيون سَنة ١٢٨٩هـ، وقَدْ كانت مدينة صَنعاء تحت امرةِ شَخصٍ آخر هو الحاج أحمد بن أحمد الحيمي، واتخذ لنفسِه لقب "عاقل صنعاء" فقط!! وبدوره هَذا فقد اسْتبدَّ بالناس اسْتبدادًا كبيرا، وعاث في المدينة فسادًا، وخرَّب كثيرًا من دُور صَنعاء التاريخيَّة، وتم خلعُه من قبل أهل صَنعاء، فقام بتحشيد القَبَائل وتحريضِها على نَهبِ صَنعاء بعد أن حاصَرها، إلا أنه فشلَ في نَهبها وتدميرها، فالتجأ إلى الأتراك إلى تهامة؛ حيث كانوا قد سيطروا عليها، ويقيمون هناك، وذلك لاسْتقدامهم إلى صَنعاء، ثأرًا له من أهْلها؛ إلا أنه وقع أسيرًا وهو في الطريق إليها من

قبل إمَام جديد لم يُسمع به بعد!! وهو الهَادي حسين بن محمد الهَادي في الطويلة بالمحويت، فعاد به إلى صَنعاء وأودعه السِّجن، وبقيَ فيه حتى مات!! ١

ودعا الإمَامُ يحيى لنفسِه في العَام ١٩٠٤م، بعد وفاة والده، وهو وإن كانَ عالمًا مجتهدًا في علوم الفقه والشَّريعة بشكلٍ عام؛ إلا أنه غير مُستوفٍ الشَّرط حسب نُصوص المذهب، كونه بخيلا، مشهورا بالشُّح، وقَدْ كان يدرك ذلك؛ فلما اجتمع العُلماء للتداولِ وانتخاب إمَامِ "أغلق على المجتمعين بابَ غرفة الاجتماع، وترك الشَّيْخ ناصر مبخوت الأحمر حارسًا عليها، فلما سَمعهم الحارس يتداولون الرأي في انتخابِ الإمَام يحيى أو انتخاب غيره، هاجمَ الاجتماعَ وهدَّدهم بالقتل وقال: "مابش" إمَام غير سِيدي يحيى.."٢ وثمة روايات أخرى، قريبة من هَذِه الرواية، ذكرها الأكوع في كتابه هجر العلم وغيره.. ٣

---

١ . في قصة الإمَام محمد بن يحيى مع المهدي من غرائب السِّيَاسَة ومواقفها ما يستدعي التأمل فيها كثيرا، إذ لم يكن يخطر ببال الإمَام المهدي أنه سيعود للحكم يوما ما بعد الإمَام محمد بن يحيى الذي غلبه في موقعة نقيل يسلح، فحين قَام الإمَام محمد بن يحيى بالتعاون مع الأتراك في حملتهم الثانية وإدخالهم إلى صَنعاء وتسهيل الأمور لهم، وفي غمرة الفوضى والمشاكل التي عمت صَنعاء ليلة ٦ رمضان ١٢٦٥هـ وبعد أن وقعت معركة طاحنة راح ضحيتها ما يزيد عن مئة قتيل، ثار عليه النَّاس وحاصروه في داره حتى انتهى به الأمر سجينا في دار الحكم، باعتباره خائنا. في هَذِه الحالة لم يكن من حَلٍ إلا أن يعود الإمَام السابق "المهدي" إلى الإمامة، ليبدأ جولة جديدة من الحكم ويتفاوض مع الأتراك من أجل الخروج، وفعلا خرجوا يوم العيد بعد ثلاثة أسابيع على دخولهم صنعاء، متجهين إلى تهامة تاركين صَنعاء للإمام فقط. وحين خرج الأتراك بدأت الفوضى من جديد وخرج الإمَام الويسي من صَعْدَة على الإمَام الهَادي "المهدي سابقا" وخشي الهَادي من أن يتحالف الإمَام السابق المتوكل وأسرته مع الإمَام الجديد الويسي فقرر قطع رأس الإمَام محمد بن يحيى في السجن يوم ٢٤ محرم ١٢٦٦هـ. وخلع نفسه أو خُلع للمرة الثالثة من الإمامة. وقَدْ كان هَذا أول رأس يُقطع من آل القاسم بأمر سِيَاسِي من داخل الأسرة نفسها، وكان آخرها أمر الإمَام أحمد قطع رأس أخيه عبدالله عقب فشل انقلاب ١٩٥٥م الشهير. ومن أغرب وأعجب الأمور أيضا أن الإمَام المهدي قد عاد للحكم للمرة الرابعة! فبعد أن تنازل أو خلع نفسه للإمام الويسي الذي لم يتمكن من الإمامة، إذ قَام إمَام آخر هو عباس بن عبد الرحمن بن محمد الحسني الشهاري، وتمت مبايعته في رجب ١٢٦٦هـ، وقَدْ تلقب بالمؤيد، لكن لم تدم إمامته إلا تسعة أشهر وسبعة عشر يوما فقط! فقد قَام إمَام آخر بالخروج عليه والدعوة لنفسه هو الإمَام أحمد بن هَاشِم الذي اضطر الشهاري أن يتنازل له، وبقي الأخير إماما لأشهر قليلة فقط، والفوضى لم تسكن، فعاد النَّاس للإمام المهدي ليعود للحكم للمرة الرابعة في ربيع الآخر ١٢٦٧هـ ليقوم بدور المنقذ أو الإطفائي؛ لكن لفترة لم تزد عن ستة أشهر فقط. انظر في هذا: فترة الفوضى وعودة الأتراك إلى صنعاء، الدكتور حسين بن عبدالله العمري، ٣٤ فما بعدها..

٢ . هجر العلم ومعاقله في اليمن، القاضي إسماعيل بن علي الأكوع، دار الفِكر المعاصر، بيروت، لبنان، دار الفكر، دمشق، سورية، ط:١، ١٩٩٥م، ٣/١٧٠٠. وأيضا: تكوين اليمن الحديث، سيد مصطفى سالم، دار الأمين للنشر والتوزيع، ط:٤، ط:٤، ١٩٩٣م، ٧٢. وانظر ايضا: مذكرات الرئيس القاضي عبدالرحمن الإرياني، ط:١، ٢٠١٣م، ١/٥٨. وكلمة "مابش" هنا تعني لا يوجد.

٣ . من المفارقات العجيبة في علم الإمَام يحيى وسياسة الكيل بمكيالين التي يتبعها الساسة عادة أن أولاده . عدا الحسن . كانوا مولعين بالشراب كثيرا، "سمعتُ شهادات بذلك لمعمَّرين لا يزالون أحياء إلى اليوم". وأيضا ذكر ذلك الدكتور مصطفى الشكعة في كتابه مغامرات مصري في مجاهل اليمن، ص ٦٤. بل لقد ذكر ما هو أكثر من ذلك!!. وقَدْ حاججه بعض فقهاء عصره على فعل أولاده، فرد عليهم: "الشريعة على الظاهر والله يتولى السرائر"، فأحرجوه أكثر حين ذكروا له أنه جلد مواطنين آخرين غير أولاده، ولما عرف قصدهم عاد للجدل معهم وقال: إن الشريعة لا تنص بحد على شارب الخمر! فاحتجوا عليه بفعل عمر بن الخطاب رضي الله

ولم يكن الإمَامُ يحيى أولَ إمَامٍ أكره النَّاس على البيعة له، فقد فعلها قبله الأميرُ أحمد بن الحسن والي الإمَام المتوكل على الله إسماعيل على صَنعاء؛ حيثُ دخلها عنوة بعد حِصارٍ وحرب، وكانت تحت إمامةِ أحمد بن القاسم، فلما سَيْطر هو لصالح عمه المتوكل إسماعيل، أجبرَ كلا من القاضي سعد الدين المسوري، والقاضي إبراهيم السحولي . والأخيرُ خطيبُ الجامع الكبير يومها . على البيعة بالإكراه للإمام المتوكل على الله إسماعيل وحوَّل الخطبَة له، وقَدْ كانت لأخيْه قبل ذلك.

وكانت هَذِه هِي المخالفةُ الأولى لشروطِ المذهب بالنسبَة للإمام يحيى، فيما كانت الثانية الرضا الضمني عما شَاع أو سَعى إليه البعضُ من تعيين ابنه أحمد وليًا للعهد، صحيح أنه لم يصدر "فرمانا" رسْميًا بذلك، إلا أن الشائعَة قد أخذتْ مجرى الحقيقة، في الوقت الذي لم يقم بنفيها، وتعامل معها بحذر وذكاء؛ إذ عين نجله أحمد في مناصبَ رسْميَّةٍ في قيادةِ الجند وإمارةِ الألوية..

وثالث المخالفات التي تُعتبر جوهريَّة في المذهب، تلقيب نفسِه ملكا، واليمن مملكة، في بعض العقود الرسْميَّة، وقَدْ أثارتْ عليه ردودُ أفعالٍ غاضبةٍ من قبل بعض كبار الزَّيْدِيَّةِ يومها الطَّامحين للإمامة من بعده.١

ولذا فخلال فترة حُكمه نافسَه على الإمَامَة الحسن بن يحيى الضحياني، الذي ألحقَ الإمَامُ يحيى به الهزيمةَ، وحاصره في صَعْدَة حتى توفي فيها عام ١٩٢٤م. وقَدْ كان أكبرَ علما منه، فكان علمُه سِر تخوفِ الإمَامِ منه. كما سَجن منافسًا آخر كان طَموحًا للإمامة في عهده هو محمد بن إبراهيم المؤيدي ثلاثين عامًا متتالية، بسبب شعبيتِه الكبيرة في صَعْدَة ونفوذه فيها.٢

عنه، فرد عليهم: إن فعل الصحابي ليس بحجة، وإنما الحجة آيات الكتاب وأفعال النبي وأقواله وإقراراته. والعجيب هنا أنه استغور أحكام الشريعة باحثا عن مخرج له، لكن فيما يتعلق بأحقيته الشَّرْعيَّة "الوهمية" في الولاية لن يعدم عشرات الأدلة الوهمية أيضا من كتاب وسنة وقياسات على انعدامها جميعا..!!

١ . استخدم لقب ملك لأول مرة في المعاهدة التي وقعها مع إيطاليا في سبتمبر ١٩٢٦م.

٢ . انظر: حياة الأمير على الوزير، أحمد بن محمد الوزير، منشورات العَصر الحديث، ١٩٨٧م، ٣٨٣.

كما نافسه أيضا يحيى شيبان في حجة، وهو أحدُ رفاقه السَّابقين، وممن عملوا معًا إبان الحُكم التركي في مَجَال الأوقافِ والزكوات، وخاضَ معه جَدلا كبيرًا، إلا أن الإمَامَ استطاعَ السَّيطرة عليه، وإدخاله السجن حتى مات.

وخرجَ عليه ـ أيضًا ـ نجله السَّيف إبراهيم معلنًا انضمامه إلى الثوار الأحرارِ في عدن عام ٤٦م، ثم لحقه بالخروج أخوه علي، ونظم قصيدة في والده منها:

بني وطني إلى كم نحن نشقى وأنتم في المضاجعِ راقدونا؟
وهذا المستبد الغِر "يحـيـى" عـدو الله يظلمكم سِنينا!

وقد تعددت الانتفاضَاتُ والحركاتُ في عهد الإمَام يحيى١ بصورة متلاحقة خلال فترة حكمه؛ إذ قامتْ تمرداتٌ وانتفاضاتٌ بعضُها يحمل صبغةَ العشائرية، كتمرد محمد بن علي بن أحمد الوزير عليه في خولان، سنة ١٩٢٢هـ، وقَدْ كان عامله في خولان يومها، وبعضها أشبه ما يكون بالانتفاضات الشَّعبيَّة، كانتفاضة حَاشد ومعها حجة، فالمقاطرة، والحدا، وصعفان في حراز، والبيضاء، وبيت الفقيه بتهامة، وريمَة، حتى انتهى به الأمر صَريعًا، في منطقة حزيز، خارج صنعاء، وهو يتفقد أملاكه الخاصَّة هناك، لتقوم ثورة ١٩٤٨م الدسْتورية عقب مصرعِه التي نصَّبت عبدالله بن أحمد بن الوزير إمامًا دستوريًا، دامت إمامتُه ثلاثة أسَابيع فقط؛ انقلب نجلُ الإمَامِ السابقِ عليْه، واستولى على الحُكم، ثم قَتل ابن الوزير وآخرين، على ذمَّة الثورة.٢

١ ـ تفاصيل هَذِه الانتفاضات مبثوثة في أكثر من مرجع، مثل تاريخ الشماحي، ونزهة النظر لزبارة، واليمن الجمهوري للبردوني، أما ما يتعلق بانتفاضة رَيْمَة عام ١٩٢٠م، فلم أجدها إلا في كتاب كتيبة الحكمة من سيرة إمَام الأمة، للمؤرخ عبد الكريم مطهر؛ لكنها مروية بصيغة أخرى على طريقة كُتَّاب السير للأئمة، باعتبارها حركة "بُغاة" قضى عَليْها المجاهدون، أتباع الإمام! كما قضوا على الجبهة الأخرى هناك وفيهم من رجالات الحدا من ذمار، وقَدْ ذكرها المؤرخ حيدر علي ناجي العزي في بحث غير مطبوع له.

٢ ـ روى الدكتور مصطفى الشكعة في كتابه المشار إليه سابقا ما اعتبره الأستاذ الدكتور عبد العزيز المقالح واحدًا من أسرار ثورة ١٩٤٨م الدستورية، ومن أغرب أسرار الطغاة، وقدرتهم على التضحية بأقرب المقربين في سَبيل تحقيق مطامعهم الشخصية، وهو أن السيف أحمد وقتها قد عمل بكل الوسائل على الإطاحة بوالده من أجل اغتصاب الحكم بعده، وقَدْ تلكأ في الوصول إلى صَنعاء على الرغم من علمه بمخطط الثوار، ليجعل من قتل الثوار لأبيه قميص عثمان، وهو عين ما حدث. ولهذا فقد قرر الثوار اغتيال السيف أحمد مع والده في وقت واحد للتخلص منهما معا، وحدث لهما ما حدث لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه وعمرو بن العاص حينما نجَّاه نومه من القتل، ذلك أن أحد المُقربين إليه قد تعهَّد للثوار بقتله، وفي اليَوم المعين نام الإمَام أحمد نوما عميقا، بعد أن أغلق

وفي مُنتصفِ فترة حُكم الإمَام أحمد ١٩٤٨ ـ ١٩٦٢م الذي أعقبَ أباه، خرجَ عليه أخواه عبد الله والعباس، في انقلاب مدعومٍ شعبيًا ضده، عام ١٩٥٥م، إلا أن الانقلاب لم ينجح، وظفر بهما الإمَام وقتلهما بعد ذلك. كما احتدم الصِّرَاعُ بين الحسن أخي الإمَام وابن أخيه محمد البدر على وراثة الإِمَامَة بعد الإمَام أحمد، ودخلا في صراعٍ قويٍ نهاية الخمسينيَّات من القَرْن الماضي، واستمرَّ حتى بعد الثَّورَة التي أتت على حُكمِهم ونظامِهم جَميعًا من قواعده؛ بل ونظام الإِمَامَةِ بأجمعها، فانتهى الحال بالإمام أحمد مقعدًا عقب حادثة محاولة اغتيال اللقية والعلفي له في الحديدة عام ١٩٦١م؛ حيثُ أمضى بقية عمره بعد هَذِه الحادثة شبْه كسِيح، وعاجزًا عن الحركة، حتى توفي في ١٩ سبتمبر ١٩٦٢م. وورثه ابنُه محمد البدر لفترة لم تزد على أسْبوعٍ واحد، انتهى به الحالُ طريدًا شَريدًا بقيام ثورة السَّادس والعشرين من سبتمبر، عام ١٩٦٢م. فارًا بجلده من قصر البشائر؛ خوفًا من غضبِ الثوار، متجهًا نحو هَمدان، ومنها إلى عمران، فحجة..[1]

هَذا غيضٌ من فيض سِلسلةِ الانقلابات والثورات التي كان يقوم بها الأئمَّةُ وولاتُهم على بعضِهم البعض، ووقودها الشَّعب وأبناء القَبَائل الذين عادة ما ينقسمون فريقين، ما بين مؤيدٍ لهذا ومعارضٍ لذاك، لينتهِي بهم الأمرُ قتلى بلا سَبب، غير سَبب الصِّراعاتِ التي يديرها الأئمَّةُ فيما بينهم؛ لأن الأئمَّةَ نادرًا ما كانوا يقاتلون بأقربائهم القَبَائلَ أو الجَمَاعاتِ الخارجةَ عليهم، بقدر ما كانوا يجعلون على رأسِ حَمَلاتهم الحربيَّة رُؤوسًا منها يقتلُ بعضُها بعضًا. وقَدْ ".. اتخذوا القياداتِ المحليَّة لإمارات الحُروبِ وسَادات التصالح، اجتنابا لطموح ذويهم الذين كانوا ينفردون بحكم المنطقة التي يُخضعونها أو يقيمون فيها، كما فعل "مهدي المواهب" مع "مهدي شهارة" فقلما حَارب إمَامٌ بذويه؛ لهذا اتخذ الأئمَّةُ وزراءَهم وقادةَ أكثر حروبهم من غير ذويهم، ولم يمنع هَذا من مزيدٍ الخارجين تحت مبدأ الخروج على الظالم، ولو

حجرته برتاج سمين، ولم يستيقظ إلا على خبر مقتل أبيه، فنجا من القتل بأعجوبة، ومن المدهش أن الشخص الذي كُلف بقتله بقي من أقرب المقربين إليه! ص ١٥٥.

١ ـ سمعتُ من الدكتور محمد عبدالملك المتوكل الوزير الإمامي في حكومة البدر بعد قيام ثورة ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢م أن عناصر من بيت حميد الدين قدموا من الخارج عقب سماعهم تولية الإمام البدر بعد موت والده، وذلك لمعارضة البدر، مدبرين انقلابا عليه، وأثناء نزولهم في مطار عدن سمعوا بقيام ثورة ٢٦ سبتمبر ضد البدر نفسه، فتركوا معارضة البدر وانضموا لحلف الإمامة.

من الآل، وذلك لتعدد عوائل الحاكمين وفروعها، ولشُعور كل بيتٍ بأحقيتِه واسْتيفائه الشُّروط المكتسبة شَخصيًا.."[1]

إن كل هذه الثورات والانقلابات لم تعتمل على أرض الواقع إلا بعد أن تهيّجت في النفوس وتخمّرت فيها. وإن العنف والإرهاب ومعهما القبح في التصرفات التي تصاحب الحروب لم تحصل على أرض الواقع إلا بعد أن تغلغلت في النفوس وتحكمت فيها؛ ذلك أن سلوكياتنا العمليّة هي انعكاس مباشر لما يدور في أذهاننا.

ولعل كلَّ تلك الصِّراعات السِّيَاسِيَّةِ المحمومَةِ، وما نتجَ عنها من دمارٍ مهولٍ وكوارث مُرعبةٍ في مُقدَّرات الشَّعبِ اليَمني وتاريخِه الحضَاري العَريق، هو ما دفع المؤرخ والأديب أحمد محمد الشَّامي . وهو أحد أعلام الهادوية المعاصرين ممن تعقّلوا مؤخرا، ولكن بعد خراب مالطة . بقوله: "ولعلَّ من واجبي، لا كمؤرخ؛ بل كناصحٍ يتحرى الصوابَ أن أُفصِحَ عن وجهةِ نظرٍ اقتنعتُ بها منذ أمدٍ بعيد، وأشَرتُ إليها مرارًا في بعض كتبي وأشْعَاري، وفحواها أنَّه لا خيرَ لمن حرمتْ عليهم الزَكاةُ من أهل البيْت في الولاية العامَّة؛ بلْه الاسْتئثار بها واحتكارها. ولم أتوصل إلى قناعتي بأن الأجدى لهم والأخلق بهم الابتعاد عنها والزهد فيها، بكل صورها وأشكالها وأسمائها . ولاسيما إذا كان لن يصل إليها من يطمع فيها إلا شاهرا سيفه . إلا بعد دراسة لأسباب ومسببات المآسي والكوارث التي حلت باليمنيين خلال أحد عشر قرنا.. ولو لم يكن من تلك المآسي إلا الصراع المرير الذي نشب عدة مرات قديما وحديثا بين ورثة النظرية، والذي رأينا فيه وشاهدنا كيف يقتل الأخ أخاه، وكان من نتائجه التناحر بين أولاد العم، وذوي القربى، وأبناء الأسرة الواحدة من آل الهادي أو العيَّاني أو السليمانيين أو الحمزات، إلى آل شرف الدين والقاسم، وأخيرا آل الوزير وحميدالدين لاكتفينا بذلك عبرة وعظة"[2].

---

١ . اليمن الجمهوري، عبدالله البردوني، د. د. ط:١، ١٩٨٣م، ٣١.

٢ . تاريخ اليَمَن الفكري في العَصر العَبَّاسي الأول، أحمد محمد الشَّامي، دار النفائس، منشورات العصر الحديث، بيروت، ط:١، ١٩٨٧م، ١/١٢١. ومما يجب التنويه له هنا أن العلامة الأديب أحمد بن محمد الشَّامي الذي أشرنا إليه هو غير العلامة أحمد محمد الشَّامي أمين عام حزب الحَق السابق.

هذا صوت متعقل، وإن في الوقت الضائع، استقرأ معالمَ الصراع وأسبابه وتوصل إلى هذه الحقيقة؛ لكن هل سيكون لصوته صدى؟![1]

إن أول ملامح العدوان والعنف في هذه النظرية يتبدى في الشرط الأول لصحة الحكم وشرعيته، كما تقرر النظرية، "الخروج بالسيف"..! نظرية تبدأ بالسيف، وتنتهي بالسيف، وفيما بين سيف البداية وسيف النهاية آلاف السيوف المشرعة والمعارك الدموية التي لا يهدأ أوارُها ولا يخمد دخانها.

ووفقًا لعالم النفس الشهير سيجموند فرويد[2] فإن للإنسان غريزتين رئيسيتين: غريزة الحب أو الجنس، وغريزة العدوان. وقد اعتبر فرويد أن الإنسان يسعى لتصريف طاقة العدوان التي تختزلها ذاتُه بأي طريقة، خارجية على الغير، أم داخلية على النفس، وأن هذا الطاقة لا تستقر أو تهدأ إلا إذا اعتدى على غيره، سواء بالقتل أم الضرب أم الكلمات النابية، وقد يلجأ الإنسان إلى الاعتداء على نفسه بالانتحار لتصريف الطاقة العدوانية التي تتملكه، وهو ما نلاحظه لدى هذا الكيان المتضخم بالطاقة العدوانية كيف يعتدي على ذاته بالضرب المبرح حد سيلان الدماء وتهشيم الجسد في عاشورا، إلى جانب الندب والتطبير، ضمن طقوسهم الدينية؛ لعجزهم عن تصريف الطاقة خارجيا..!

"وفي نفس الاتجاه يرى أدلر[3] أن العدوان دافعٌ مستقلٌ لا شعوري يوجه سلوك ضحاياه، كما أن العدوان هو الدافع الأساسي في حياة الفرد والجماعة، وأن الحياة تنحو نحو مظاهر العدوان المختلفة من سيطرة وتسلط وقسوة.. ولقد طور أدلر بعد ذلك فكرته في إرادة القوة

---

١ ـ انظر: الهادوية بين النظرية السياسية والعقيدة الإلهية، ثابت الأحمدي، وزارة الثقافة، مؤسسة أروقة، ط:١، ٢٠١٨م، ١٧٦ فما بعدها.

٢ ـ سيغيسموند شلومو فرويد. يعرف اختصارًا بسيغموند فرويد (٦ مايو ١٨٥٦ـ ٢٣ سبتمبر، ١٩٣٩) هو طبيب نمساوي من أصل يهودي، اختص بدراسة الطب العصبي، ومفكر حر، يعتبر مؤسس علم التحليل النفسي. وهو طبيب الأعصاب النمساوي الذي أسس مدرسة التحليل النفسي وعلم النفس الحديث. "ويكي".

٣ ـ ألفريد ادلر (٧ فبراير ١٨٧٠ – ٢٨ مايو ١٩٣٧)، هو طبيب عقلي نمساوي، مؤسس مدرسة علم النفس الفردي، اختلف مع فرويد وكارل يونغ بالتأكيد على أن القوة الدافعة في حياة الإنسان هي الشعور بالنقص والتي تبدأ حالما يبدأ الطفل بفهم وجود الناس الآخرين والذين عندهم قدرة أحسن منه للعناية بأنفسهم والتكيف مع بيئتهم.

بما أسْماه بعد ذلك النزعة نحو التمايز، وطور هذه النزعة أخيرا إلى النزعة نحو الكمال، أو النزعة نحو الارتقاء".[١]

ويرى "ماسلو"[٢] أن العدوان والنزعة إلى التدمير صفتين أصيلتين في الإنسان، فهو يصبح محبا للمقاتلة، نزّاعا إلى التدمير حينما تُعاق طبيعته الداخلية أو تُقابل بالإنكار والإحباط حتى يختفي العدوان".[٣]

العُدوان إذن حالة مَرضيّة، تعتري الأشخاص، كما تعتري الجماعات، وما استعرضناه آنفًا من سلسلة الخُروجات والانقلابات الداخلية على بعضهم البعض نوع من تفريغ طاقة العدوان الداخلي على نفسها لا شعوريا، وقد عدمت مبرر التفريغ الخارجي. مرة أخرى.. النار يأكل بعضُها بعضًا إن لم تجد ما تأكله.

إن شخصية هذا الكيان فصامية، تعيش المتناقضات الداخلية، قوانين الكون ودساتير الحياة مرتهنة بموقف الناس من علي بن أبي طالب وفاطمة، بل إن حياة الناس الدنيوية والأخروية مرتبطة بعلي وفاطمة..! علي هو محور الكون..!

لهذا هم غير أسوياء، وهم فصاميون، وهم مغتربون عن الحياة، يعيشون وسواسا قهريا في محيطهم النفسي الذي عزلوا أنفسهم به، يكادون يتميزون غيظا، في وجوههم اللهب، وفي أعينهم الشرر حتى يكونوا هم الأئمة والولاة، ولو كانت إمامتهم على بيضة، لهذا كثر الصراع والاحتراب ليس مع الآخرين فحسب؛ بل فيما بينهم البين، ولو قُدر للبشرية جميعا أن تفنى في لحظة واحدة على كوكب الأرض وبقي على وجهها علويان اثنان فقط، لتقاتلا بالسيف على الإمامة..!

الأزمة نفسية، سيكولوجية، أسرتْهم "البارانويا" الزائفة، وما الاحتراب والقتل والتدمير وحرب الشائعات إلا جزء من تجلياتها، ومن الصعب إذن إصلاح القوم بالدين أو الثقافة قبل

---

١ ـ سيكولوجية العدوان، سابق، ١٠٢.

٢ ـ ابراهام ماسلو (١ ابريل ١٩٠٨ – ٨ يونيو ١٩٧٠) عالم نفس أمريكي، ولد في بروكلين، نيويورك. أبواه مهاجران يهوديان من روسيا. اشتهر بنظريته تدرج الحاجات. "ويكي".

٣ ـ سيكولوجية العدوان، ١٠٢.

إصلاح النفسية المتأزمة، وإعادة تأهيلها من جديد، لتصبح مشاركة وفاعلة إيجابيا على مسرح الحياة العامة بصورة طبيعية مع الآخرين.[1]

إن مظاهر التعدي بين الكاثوليك والبروتستانت في فرنسا بتلك الوحشية الجنونية حيث كان الكاثوليك يدفنون البروتستانت أحياء في الآبار، وكذلك فعل نظراؤهم الكاثوليك مع البروتستانت في بريطانيا قد لاقت صدى كبيرا واهتماما واسعا لدى النخبة السياسية التي وضعت حدا نهائيا لهذا التوحش؛ لكن نفس الحالة ذاتها لدى يحي حسين الرسي الذي ألقى باليمنيين في الآبار أحياء وأغلقها عليهم، ثم قتل آخرين وصلبهم وعلقهم على الأشجار منكّسِي الرؤوس لم تجد لها صدى لدى اليمنيين حتى الآن. صحيح أنها حالة من الماضي؛ لكنها لا تزال تتكرر إلى اليوم من قبل ذرية الهادي، وبنفس الروح الانتقامية، في أبشع عملية تنكيل يلاقيها اليمنيون من هذا الكيان البغيض..!

إن البنية النفسية للنظرية الإمامية الهادوية بنية فوضوية، تنزع للدم، وتميل للعنف، وتؤصل للفوضى منذ بذورها الأولى عمليا، ومن حروفها الأولى نظريا، متمثلة في "الخروج بالسيف" كشرط أساسي لديمومة الإمامة لا تصح إلا به؛ لهذا فهي نظرية عُنفية مع الآخر المخالف لها، وهي كذلك عُنفية مع نفسها من الداخل، ولا يستقر لها قرار.

يذكر عالم النفس التحليلي "سول شيدلنجر" أن الميول العدوانية تتجلى دائما في حياة الجماعة، ويستتبع ذلك ضرورة نسبة العدو ان إلى الغير، إبقاء على تماسك الجماعة، بحيث نرى الجماعة الخارجية هي التي تضمر لنا العداء، وإذ نهاجمُ هذه الجماعة فنحن نهاجم العدوانية التي بداخلنا. ومن ناحية أخرى تصبح هذه الجماعة الخارجية بما هي عدو مشترك عاملا موحدا للجماعة. وعلى التعميم يضيف "شيدلنجر" أن تحليل التعصب يبين أننا لسنا فقط نُسقط عدوانيتنا على الجماعة الخارجية؛ بل نسقط عليها كل ما هو سيئ في أنفسنا..[2]

---

١ ـ انظر: حرب الشائعات.. الإمامة الهادوية في اليمن تاريخ من الافتراء، د. ثابت الأحمدي، دار النهضة اليعربية، ط:١، ٢٠٢٠م، ٤٩ فما بعدها.

٢ ـ انظر: أزمة الهوية والتعصب، د. هاني الجزار، هلا للنشر والتوزيع، الجيزة، ط:١، ٢٠١١م، ١١٣.

".. وأيًا كانت ميولُ الشخص للشعور بالعدوانية عموما فإنه لا يوجه عدوانيته تجاه أي شخصٍ أو جماعة إلا إذا تعلم أن يفعل ذلك، وذلك وفقًا لمنظور الطبيعة المكتسبة المتعلمة للدوافع والاتجاهات، وعليه يمكن أن نتوقع أن أي شكل نوعي من التعصب سوف يكون متعلما. هذه القدرة على التعلم تظهرُ في وقت مبكر من الحياة.. وعليه إذا اعتبرنا التعصب كاتجاه مُتَعلَّم، وأن توجيه التعصب إزاء جماعات بعينها أمرٌ متعلم أيضا فإن التنشئة الاجتماعية يمكن أن تلعب الدور البارز في هذا الصدد".[1]

وقد استقرأ الإمام الشوكاني عدوانية الهادوية المتعصبة الذين خبرهم وخبر التعامل معهم من موقعه كعالم وقاضٍ وسياسي، فقال: ".. وهكذا من ألقى مقاليد أمره إلى رافضي وإن كان حقيرا، فإنه لا أمانة لرافضي قط على من يخالفه في مذهبه ويدين بغير الرفض؛ بل يستحل ماله ودمه عند أدنى فرصة تلوح له، لأنه عنده مباح الدم والمال، وكل ما يظهره من المودة فهو تقيَّة يذهب أثره بمجرد إمكان الفرصة. وقد جربنا هذا تجريبًا كثيرا، فلم نجد رافضيًا يخلصُ المودة لغير رافضي، وإن آثره بجميع ما يملكه، وكان له بمنزلة الخول، وتودد إليه بكل ممكن. ولم نجد في مذهب من المذاهب المبتدعة ولا غيرها ما نجده عند هؤلاء من العداوة لمن خالفهم؛ ثم لم نجد عند أحد ما نجد عندهم من التجري على شتم الأعراض المحترمة، فإنه يلعن أقبح اللعن، ويسب أفظع السب، كل من تجري بينه وبينه أدنى خصومة وأحقر جدال وأقل اختلاف. ولعل سبب هذا ـ والله أعلم ـ أنه لما تجرؤوا على سب السلف الصالح هان عليهم سب من عداهم، ولا جرم فكل شَديد ذنبٍ يهون ما دونه..".[2]

من هنا ندرك حقيقة الإسقاط النفسي الذي يتعاطاه الكيان الإمامي على الآخرين، تارة على من يسميهم العملاء من المنافقين والإرهابيين في الداخل، وتارة على العدو الخارجي.

---

١ ـ أزمة الهوية والتعصب، سابق، ١٤٣.

٢ . أدب الطلب ومنتهى الإرب، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، تحقيق: عبدالله بن يحيى السريحي، دار الكتب العلمية، ط:١، لبنان، ٢٠٠٨م، ص: ١١٩.

سيكولوجيا الخوف

نظرًا لكون النظرية الهادوية نظرية عنف وقتل وهدم وإرهاب، فقد انعكس هذا الأمر على النفسية المجتمعية بصورة مباشرة، بمعنى أنها قوضت السلم المجتمعي وطبعت الإنسان بطابع الحذر والريبة والشك من أخيه وقريبه، بحكم الصراعات الطويلة والحروب العبثية التي لم تتوقف، لأن الحروب تخلق من الأشرار أكثر مما تقتلُ منهم؛ بل إنها تعزز الدوافع الإجرامية لذوي الميول الإجرامية حين يجدون ميدانا للصراع يستعرضون فيه ميولاتهم ويفرغون فيه طاقاتهم العدوانية.

في المجتمعات المتسمة بالحروب تتكوّر الجماعات على نفسها، وتتحوصل على ذواتها كنوعٍ من الاحتماء بالنفس والدفاع عن الذات، بمن في ذلك الجماعة المعتدية نفسها حيث تعيش حالة من استشعار رد الفعل على الدوام من قبل الطرف المظلوم نفسه، كالمدين الذي ينتظر دائنه أي وقت، فالكيان الإمامي نفسه دوما ينظر لكل من عداه مصدر تهديد، فلا يمكن لقاتل نفس أن يهدأ مدى الحياة، يعش القلق بكل تفاصيله، فتجعله يتحوصل أكثر على ذاته، للاحتماء بأسرته.. بعِرقِه.. بسلالته.. بالكيان الذي يسيّج نفسه به، لا بالدولة الجامعة للكل، لأن النظرية أساسا ضد الدولة. من جهة أخرى تخلقُ هذه الحالة رد فعل آخر لدى الطرف النقيض، فتجد مجتمعًا كل عنصر فيه متربصًا بالآخر، وذلك من طبيعة الحروب نفسها التي خلقتها النظرية الفوضوية.

هذه الحالةُ طبعتْ النَّفسِيَّةَ اليَمنيَّةَ، سواء على الصعيد الشخصي أو الجمعي بطابعِ الحذرِ الدائمِ والتوجس المستمر من الآخر، ولم تكن العَلاقة الاجتِمَاعيَّةُ علاقةً طبيعيَّة في غالبها يغلبْ عَلَيْها الأمانُ والطمأنينةُ، كما كان عليه الأمر سَابقا قبلَ الإِسْلام مثلا؛ لذا لجأ النَّاسُ إلى الاحتماءِ بالطبيعةِ لقساوتها في حد ذاتها؛ حيثُ سَكنَ الشَّواهقَ الجبليَّة، فلا يكادُ يخلو شاهقٌ أو مرتفعٌ على طُول اليَمَنِ وعرضِه من بيتٍ أو آثارِ بيتٍ أو حصنٍ منيع لهذا السبب؛

بل لقد توارثوا البقاء فيها إلى اليوم على صعوبتها، مع أنَّ المكان الطبيعي للسُّكنى في المنبسط من الأرضِ أو الشطوط المطلة على الوديانِ، كما هو الشَّأن لدى كل الأممِ في شتى بقاعِ المعمورة. وظلت هَذِه العادةُ إلى اليَومِ راسخةً في الذهنيَّة العَامَّةِ، وفي نفسِ كل يمنيٍ، مع ما أصبحَ يمتلكه من مقوماتِ الدفاع عن نفسِه من السِّلاح الفتاك بالأعداء، ومع وجودِ الدَّولَةِ ولو في حدها الأدنى. إنَّها حالةٌ من الشُّعور بالخوفِ أو عدم الطمأنينة، تسكن أعماقَ أعْماقه، شَعرَ بذلك أم لم يشعر. ويبدو أنَّ التخلصَ منها أمرٌ بعيدُ المنال؛ لذا تُعتبرُ اليَمَنُ من أكثرِ الدول العَربيَّةِ توزعًا سُكانيا، فهِي تفوق مصرَ البلد الكثير السُّكان، في هَذا الجانبِ أكثر من الضعف تقريبًا لهذا السَّبب! ولم تكن ظاهرةُ حملُ السلاح الناري أو الأبيض إلا أحدُ أشكالِ وتمظهراتِ هَذا القلقِ الدائمِ، وضعف الطمأنينةِ، على الأقل لدى مناطقِ الشمال اليَمني وبعضِ مناطقِ الشَّرق منه!١، ولطالما رأينا كثيرًا من أبناء القبائل يتمنطق "الجنبية" وخلف الجنبية سكين صغيرة، وعلى الحزام أيضا المسدس، ناهيك عن الكلاشينكوف على الكتف، في السوق، في الحقل.. في المدينة.. في الريف.. بل حتى في الجامع، وكأنما هو حالة طوارئ على الدوام؛ بل لقد ارتبط السلاح الأبيض على وجه التحديد بالشخصية وصار جزءا منها. كما أن بعضهم ينظر لذلك أنه من معالم اكتمال الرجولة..!!

إن هذه الحالة تعكس فيما تعكس نفسا متوجسة وقلقة على تفاوت بين الناس، هي في الواقع نتاج لعقود طويلة من الرعب الذي عاشه الناس جراء الحروب والصراعات، ومن يقرأ تاريخ الإمامة يجد تفاصيل ذلك بوضوح.

هذا الصراع المتوحش والطويل بسبب الهُوّة النفسية بين الحكام والمحكومين كان له الأثر السلبي المقيت فيما يتعلق بالعمل والإنتاج، إذ تتوقف آلة الإنتاج عن العمل في المجتمعات التي تحصد النزاعاتُ الأهلية والحروبُ الداخلية رؤوسَ أهلها، لأن الزارع أو المنتج . وفي أي

١ . تذكر بعض الإشارات التَّارِيْخِيَّة أن الخنجر اليماني "الجنبية" هو في الأصل رمز وعلامة للصناعة التي اشتهرت في حَضَارَة اليمنيين سابقا.

مَجَال كان . لم يعد ضامنا نتيجة عمله، فقد تحصدها أسنة رماح الغازين والمتغلبين بلا وجه حق، فيكون التواكل والسكون سيد المشهد في المجتمعات غير المستقرة. وهَذا يؤثر بطبيعته على التراكم المعرفي بشقيه الكمّي والنوعي، وعلى الأجيال التالية أيضا، مثلما يؤثر على جيل الصِّرَاع نفسه، لأن الحَضَارة سلسلة متتالية من الثقافات والنشاط الذهني والبدني معا، وانقطاع حلقة واحدة في السلسلة أو ضعفها يؤثر عَلَيْها كاملة، إذ إن قوة السلسلة تقاس بأضعف الحلقات فيها. وإلى هذا المعنى أشار الشاعر الحكيم زهير بن أبي سلمى في معلقته الشهيرة بالقول:

وَمَا الحَرْبُ إلاَّ مَا عَلِمْتُمْ وَذُقْتُمُ وَمَا هُوَ عَنْهَا بِالحَدِيثِ المُرَجَّمِ
مَتَى تَبْعَثُوهَا تَبْعَثُوهَا ذَمِـيْمَةً وَتَضْرَ إِذَا ضَرَّيْتُمُوهَا فَتَضْـرَمِ
فَتَعْرُكُكُمْ عَرْكَ الرَّحَـى بِثِفَالِهَا وَتَلْقَـحْ كِشَـافاً ثُـمَّ تُنْتَجْ فَتُتْئِمِ
فَتُنْتِجْ لَكُمْ غِلْمَانَ أَشْأَمَ كُلُّهُمْ كَـأَحْمَرِ عَادٍ ثُمَّ تُرْضِـعْ فَتَفْطِمِ

وتعكسُ هَذِه القصيْدةُ "الشعبيَّة" طرفًا من تلك الحالةِ الفوضويَّة التي كانتْ عليها فَتراتُ الإِمَامَةِ الهادوية في غالبها، لشَاعرٍ غير معروف، تُفلسفُ دلالتُها طَبَيْعَةَ الصِّراع، ونوع المواجهَة، وكيفيَّة التعاملِ معها من قبلِ العَامَّةِ الذين أصْبحوا مُدركين حقيقةَ كل تلك الصِّراعاتِ على جهلهم وبساطتهم، يقول ذلك القبيلي الذي سمع داعي الحرب:

حين قالوا: هيا شـــــرق يا قبيـلي قلت هيا مَره، قومي وهاتي صميلي
أصبحت بين دولـــتيـن أغتنمـها شـــوري اليَوم شور، والقيل قيلي
قبلما يسيـــروا يســـــدوا علـي ذاك يا صنو لك، وهـاذاك لي.. لي
وانت سرلك هناك واذبح وهات قات واعـــصـــدي يا مره، وزد يا قبيلي
أجرة العسكري والا باب سيـــدي الـقـــصب والحبوب وأدي حمولي

القلق إذن والصراع هو سيد الموقف كما تنبئ حروف هذه القصيدة، وكل إنسان هو مسؤول عن أمنه الشخصي وعن الحفاظ على حياته وحياة من يعول.

وقد عمدتْ سِياسةُ الأئمةِ إلى تقريبِ المشايخ الأكثر تحشيدًا، والأكثر ولاء، وعادة ما "تتركز المكانةُ الجهوية للشيخ على مقدار مقتنياته من "فيْد" الغزوات على "أعداء الله"، وجعل مثل هذا السُّلوك حاجة مستدامة لدى هؤلاء، وذلك بغرس ثقافة تحتقر المهن، وتزدري أصحابَ الحرف، وتحطُّ من قيمِ الإنتاج والكسبِ باليد والكد؛ الأمر الذي تميَّعت فيه، لدى بعض القبائلِ حُرمةُ أموال الآخرين دولةً أو أفرادًا، في تراكمٍ مقعَّد مسنود بسند فقهي أعوج، نعاني آثاره حتى الآن.."١

لهذا السَّببِ ولغيره من الأسْبابِ تعززتْ في النَّفْسيّة اليَمَنِيَّةِ فكرةُ الهجرةِ والاغترابِ عن الوطَن، وشكّلَ اليَمَني بمعارفِه وخبراتِه وتفانيه عاملَ بناء وتقدُّم للغيرِ خارجَ وطنِه، في الوقتِ الذي يحتاجُ وطنُه لنصف تلك الجهود منه؛ بلْ لقد تم استغلاله خارجَ وطنه بصورةٍ تبعثُ على الأسى والحزن، كما تم هَجر الأرض اليَمَنِيَّةِ على خُصوبةِ تُربتها، وتُركتْ هَملا من قبل أهلها؛ لأنَّ ناتج ثمرتها لم يعد في يده، بقدر ما يؤولُ ظلمًا إلى الإمَامِ أو حاشيتِه، فكانت تلك المشاهدُ والمآسي الإنسانيَّة التي نقرأ عنها ونسمعُ، خَاصَّة في الريف اليَمني، الذي مثل مسرحًا دراماتيكيًا لأحْداثٍ لا تخطرُ على ذهنِ الشَّيطان.

ذاتُ الشَّأنِ نفسِه مع التجارةِ التي كادتْ أن تنتهِيَ تمامًا من ثَقَافَةِ المجتَمع، مع أنَّ المجتَمعَ اليَمَنيَّ ـ تاريخيًا ومنذ آلاف السنين ـ قد تميزَ بهاتين الحرفتينِ على غيره من الشُّعوب وبرع فيهما، وهما الزراعة والتجارة؛ إلا أنَّ عصورَ الإمَامَةِ كادتْ أن تجعلهما نسيًا منسيًا؛ لأنه يستحيلُ وجود زراعةٍ أو تجارة، أو هما معًا في ظلِّ مجتمعٍ مُضطربِ أمنيًا وسِياسيًا، فهما ابنا الأمنِ والأمانِ ونتاجه؛ علمًا أن صَنعاءَ قد كانتْ يومًا ما واحدًا من أشهرِ أسْواقِ العَرَبِ التاريخيَّة؛ بل لقد كانتْ اليَمَنُ من أهم دول العالم القديم المسيطرةِ على التجارة العالميَّة سَابقا، ومنها وعبرها تمر أغلى السِّلع العالميَّة وأثمنُها، وكان اليَمَنيُّون بحّارينَ مهرةً، لا تضاهيهمْ أمَّةٌ في الدنيا في هَذا الفن. وقَدْ أشَار إلى ذلك المؤرخُ الروماني الشهير "هيرودت"، مشيدًا بخبرةِ

١ . عادل الأحمدي، مقالة بحثية على صفحته الإلكترونية وموقع نشوان نيوز، على الرابط:
https://nashwannews.com/67133

اليمنيين في صِناعةِ المراكبِ والسُّفنِ والإبْحارِ صيفًا وشتاء.. إلخ. ولم يكن الغزوُ الروماني لليمن سنة ٢٣ قبل الميلاد إلا منافسَة لليمنِ من قبل أعتى وأكبرِ امبراطوريةٍ عالميَّة يومها، ومع هَذا فقد هُزمتْ هَذِه الامبراطوريةُ أمَامَ اليمنيين وذُبح جنودُها ذبحًا في صحارى الجوف ومارب.!

فبدلا من تحريكِ السَّواعدِ لاسْتصلاح الأرضِ وشق التُّرعِ وعمارةِ المدرجاتِ وصناعةِ السُّفن، والانشغالِ بالتجارة، كما كان الحالُ عليه في العهود السَّبئيةِ والحِمْيَرِيَّةِ، تحولتْ هَذِه السَّواعدُ حمَّالةً لسيفِ الثأرِ أو بندقيَّة الغزو، أو هراوة الانتقام، في أقبح تحولٍ تاريخي.. من حَضَارَةٍ عريقة بهرتْ العالم بعراقتِها وأصَالتها ومدنيَّتها، وبانفتاحها على العالم، إلى "كانتونات" منغلقة، تقتاتُ البؤسَ وتحتسي الحرمان.. وأرخصُ ما فيها هو الإنسَان!

والأهم هنا من الآثار السِّلبيَّةِ التي تركتهْا الحروبُ على الجانبِ العلمي والثقافي والإنتاجي كما أشرنا، يبقى أثرُها الكبيرُ على الجانبِ النفسي وما تتركه على سَيكولوجيَّة الإنسَان؛ خاصَّة وأنَّ هَذِه الحروبَ ذاتُ طابعٍ مغَايرٍ لأيةِ حروبٍ أخرى، فليستْ حروبَ جُيوشٍ نظاميَّةٍ تقتصرُ على فرقٍ مدرَّبة ومقاتلة فقط، بل تُعتبر القبيلةُ كلُّها جيشًا محاربًا، غازيًا أو مغزيًا، قاتلا أو مقتولا.. فكلُّ فردٍ في القَبيلة هو جنديٌ مقاتلٌ بالفطرة، ولديه من قصصِ الموروثِ الحربي التي تفتَّحَ وعيُه عَليْها منذ الصِّغر ما يفوق ما لدى الجنديَّ النظامي من المعارفِ النَّظَرِيَّةِ والعَمليَّة في مَجَال الحرب.! وعادةً ما تدورُ رحى هَذِه الحروبِ في الأغلبِ الأعم على مقربةٍ من الديارِ والأهل والسكنى وداخل القرى؛ لذا كان المجتمع كله حربيا الأطفال والنساء إلى جانب الرجال شبابا وشيوخا. وقد ذكر لنا التَّارِيْخ بعضًا من النِّسَاء المحارباتِ اللاتي حملن التروسَ وتقلدنَ الدروع، كالشَّيْخة صَالحة الحجرية، وأيضًا تحفة حُبَل في شَرعب السَّلام بتعز، ونورة بنت معوضة بن محمد بن عفيف في يافع، والتي قُتلتْ في

إحدى المعارك مع جنود الإمَام المهدي صَاحِبِ المواهب، وأيضا "أم أولاد أبو دنيا" و فندة الدرويشة. وأخريات أشار إليهن البردوني في اليمن الجمهوري.[1]

ولأن حروب الإمامة الهادوية بجيوشها القبلية غير نظامية فقد عمدت في حروبها على المجتمع إلى سياسة التنكيل والهدم والنفي إلى جانب القتل والأسر، خلافا لكثير من الحروب المتعارف عليها، فإذا ما نجا معارضٌ ما لهم، واستطاع الفرار بجلده، يعمدُ هذا الإمام أو ذاك إلى حرب نفسية مدمرة أخرى وهي حرق مزارعه وتدمير منزله ونهب ممتلكاته، فيصبح في ليلة وضحاها فقيرا مدقعا، وقد كان غنيا أو ميسور الحال، وهنا يكون القضاء عليه نهائيا بهذه الطريقة الخطيرة التي تفقده الأمل في البقاء والعيش بكرامة، فيتحول إلى لص أو قاتل أو قاطع طريق وقد فقد كل ما يملك. وفي سير الأئمة مئات الشواهد التاريخية على ذلك، ابتداء من المؤسس الأول يحي حسين الرسي، وانتهاء بالحوثي. ومن شابَهَ أباه فما ظلم.! وفي قصيدة أبي الأحرار الشهيد محمد محمود الزبيري أبلغ إشارة إلى هذه العادة الإمامية المتأصلة فيهم خلفًا عن سلف.

لله درُّك فارسًـــــــــا مغـــوارًا طعنَ السقوف ونازل الأحجارا
يا من هدمت البيت فوق صغاره شكـرًا فأنت جعلتنا أحـــرارا[2]

---

١ . تزعمت الشيخة صالحة الحجرية مواجهة قبائل خولان التي قادها أحد كبار أعيانهم يومها"..." وقَدْ عينه الإمَام المنصور قائدا لقبائل خولان، وكان متعطشا لجمع الأموال بأي طريقة، فاتجه بقبائله إلى الحجرية بتعز لنهبها، إلا أن أهل الحجرية تصدوا له، وبرزت الشيخة صالحة قائدة شجاعة، فصدت هذا القائد ومن معه. وثمة قصيدة للشاعر محمد سعيد جرادة يجسد فيها نضال المرأة اليَمَنِيَّة في الشمال والجنوب معا، ومنها:

ورُب فقير عرســه قد تمنعت عليه وهزت فيه نخوة جـبـــار
وقالت له: فيم وقوفك والحمى محاط بشر مستطير وأشـــرار؟
فقال لها: قد تعلمين بأننـــي أخو فتكات في الوغى غير خوار
ولكنني من عُدة الحرب أعزل وذلــك ظـرف لا يضير بمقدار
فأهدت إليه قرطها وسـوارها وما تدخر الأنثى لحالات أطوار
وقالت له: بعها لتشتري كرامة وحـرية لا يشتري مثلها الشاري

٢ ـ تنسبُ هذه القصيدةُ خطأً للشاعر الثائر الموشكي، بينما هي لأبي الأحرار الزبيري.

جماعة في مجتمع

باستقراء التاريخ الاجتماعي والسياسي والثقافي للجماعة الإمامية الهادوية منذ تواجدت على أرض اليمن آخر القرن الثالث الهجري، وبتتبع البنية التضاريسية لها نستطيع القول: أنهم جماعة في مجتمع، لا جماعة من المجتمع، وفرق بين الاثنين؛ إذ لا يزالون متحوصلين على ذواتهم، منطوين على معتقدات وأفكار خاصّة ومغايرة لثقافة المجتمع اليمني ذات التاريخ الحضاري العريق، على الرغم من مرور ما يزيد عن ألف عام فيه؛ فلا يزال بعضهم يحن إلى بعض من شرق اليمن إلى غربه، ومن شماله إلى جنوبه، كما لو كانوا أسرة مصغرة، أو عائلة واحدة، ولو سألت علويا في شمال اليمن عن علوي في جنوبه، لقال لك: هذا ابن عمي..! ولو استوضحته أكثر، لقال لك: نعم ابن عمي، جدنا واحد وهو الحسن أو الحسين[1]..! يأتي هذا في الوقت الذي لم تعد أغلب العائلات مترابطة بعد ثلاثة أو أربعة أجيال، وربما نسيتْ جدّها الأول أو تناسته، وهي ثقافة شائعة عند الناس جميعا، باستثناء الكيان الإمامي البغيض الذي يرى في العلوي الفارسي أو المغربي أو المصري أو الشامي أنه ابن عمه وقريبه، و "من البيت" حد تعبيرهم؛ فيما جاره اليمني بعيدا عن نفسه..!

إنهم كيانٌ ذو نزعة استعلائية، قائمة على الوهم والتمجُّد، وعلى ادعاء ما ليس لهم، ليكسبوا ما ليس من حقهم أن يكسبوه من امتيازات مادية ومعنوية، مستغلين حالة الجهل في كثير من المناطق؛ بل ساعين بقوة إلى تجهيل الشعب، وصرفه إلى شؤون الحياة الضرورية اليومية من مأكل وملبس، فيما التعليم والتثاقف والترقي الاجتماعي والسياسي حكرا عليهم وحدهم، فهم وحدهم من يستحقونه. وأدبياتهم الدينية والتاريخية طافحة بهذه العُقد التي

---

١ ـ حين تولى الإمام محمد بن يحيى الحكم سنة ١٣٠٧هـ وهو والد الإمام يحيى، هنأته الطائفة الشيعية في العراق بتولي الحكم وإمامة اليمن بقصيدة منها:

مُرْ وائهَ فأنت اليوم ممتثـــل والأمر أمرك لا ما تأمر الدول
الدولة اليوم في أبناء فاطمـــة بشرى قد رجعت أيامنا الأُول
محمد اليوم قد أحيا بني حسن كأنهم قـــط ما ماتوا ولا قتلوا

جرت الويلات على شعبنا اليمني العظيم. ولله در الشاعر عبدالله حمران حين شخّص حالهم شعرا، بقوله:

وهبناكم الحـــكـــم إذ كنتم تهيمون في بـــقـــعٍ خالية
وقلنا يمانون أهـــل لنـــــــا ولا عاشـــــت القيمُ البالية
وصرنا لكم فـــــي الملمَّات جندا وصرتم بنا قممًا عالية
مزجنا خلال السنين الطوال دمانا بـــكـــم حـــرة غالية
ولكنكم رغم مـــر السنين بقيتم على أرضنا جـــالية!!

ليسوا برجالات دولة ولا يتركون للدولة شأنها..! إن وصلوا إلى الحكم استعبدوا الخلق واستبدوا بهم بدعوى شرف النسب، وإن غادروا الحكم لأي سبب من الأسباب عملوا على تقويض أركان الدولة وزعزعة أركانها من الداخل. يشبهون الديدان الطفيلية داخل جسم الإنسان؛ إذا تعتاش على غذائه وشرابه ودمه، كما يفعلون هم داخل الدولة نفسها حتى تسقط، ومن ثم ينقضون عليها. يتعاملون مع خيرات الدولة ومقدراتها كما يتعامل البدو الرُّحل مع الماء والكلأ.. غنيمة أسبوع.. شهر.. موسم.. ثم يغادرون، وقد تركوا المكان قاعًا صفصفا. وهكذا شأنهم مع الدولة؛ لأنهم يدركون في قرارة أنفسهم أنهم يفتقدون للمشروعية والمشروع، ويدركون أن مآلهم إلى زوال، وأن كماشة الجمهور ستحيط بهم يوما ما؛ لذا يلتهمون خيرات الأوطان التهاما عبثيا، لتأمين حياتهم إذا ما استطاعوا الفرار خارج أوطانهم، ومن هنا نعرف سر تفرقهم في مختلف الأقطار والأصقاع؛ لأن الشعوب نبذتهم منها، وطاردتهم منذ بداية تشكلهم وإلى اليوم، وأينما وجدوا فثمة فتن ثائرة وحروب مشتعلة. كما نعرف تنكرهم للأوطان مقابل ولائهم للسلالة العنقودية المتوزعة في الأقطار، من الحجاز إلى الكوفة، إلى عراق العجم، إلى المغرب، إلى مصر، إلى اليمن. وإلى هذا أشار الحكيم اليماني المؤرخ والشاعر مطهر الإرياني في ملحمته الشهيرة بقوله:

لقد نبذتهم الأقطار نبذاً فتاهوا نحونا متشردينا
وحلوا بيننا يومـــاً فقمنا إليهم محتفين مرحبينا

فلما غرَّهم حدب وعـطـفٌ كريم يحتفي باللاجئينـــا
تباكوا وادعوا حقاً مضاعًـــا وراغوا روغة المتثعلبينـــــا
وأجروا من محاجرهم دموعـا على الشرع المطهر يندبونا
وفي ثوب من الإسلام راحوا على نياتهم يتسترونـــــا
وأبدوا سيرة النُّساك زُهـــدا ومسكنة وهم يتربصونـــا
وأحيوا من لياليهم هزيـــعًـا بتطويل السجود يخادعونا
أطالوا من مسابحهم ولكن همو بخيوطه يتصيدونـــــا
وأضفو من ملابسهم لتلقى عليـــهـــم هيئة المتبتلينا
وهم يخفون أنياباً حـــداداً وأشداقـــا بـها يتلمضونا
ويبتدعون للتضليل طـــرقا ويبتكرون للدجل الفنونا

عُصبة تخريبيّة مهووسة بالتسلط كيفما اتفق منذ تشكلهم في بداية العصر الأموي وإلى اليوم، لا يستوعبون حقائق التاريخ ولا تغيُّرات الزمان، أعمتْهم أطماعُهم عن كل ذلك. ومن يتتبع فصول الانقلابات والصراعات مع سلطات عصرهم من خلال كتاب "مقاتل الطالبيين" للأصفهاني فقط يجد حالة من الجنون المتوارث لدى هذا الكيان خلفًا عن سلف. إلى العام ٣١٣ هجرية، فقد استقصى الأصفهاني منهم المئات، غير من لم يذكرهم أو لم يصله خبره منهم. بسبب طيشهم ونزقهم الجنوني تجاه السلطة. وكان ما اجتمع العشرة والعشرون من الشباب العلويين في مجلس ما إلا وقاموا بثورة أو انقلاب على السلطة الشرعية القائمة..! بل لقد تحالفوا مع الجماعات المتمردة في أطراف الدولة الإسلامية القائمة من الفرس تحديدا التي في بلاد خراسان وما بعدها والتي خرجت على الخلافة الإسلامية القائمة، سواء في عهد الأمويين، أم في عهد العباسيين..!

الكيان الإمامي البغيض ـ وهو التسمية الأنسب لهم ـ يستبطن العداء والازدراء لليمن منذ قرون غبرت؛ لذا عمل على تدمير تراثه المادي واللامادي، وسام الناس سوء العذاب بالبطش والتنكيل، وجهّل شبابه عن عمد، ليسهل له قياد العامة من الناس، لأن قيادة القطيع أيسر،

ويسهل خداعهم بأقل الإمكانيات، ذلك أنه يفتقر للشرعية والمشروعية في حكمه، كما ذكرنا آنفا، ولذا فالأفضل له أن تبقى جموع الناس على جهالتها وتخلفها. وقد عبر عن هذا المعنى شعرا الأديب مطهر الإرياني في قوله:

وفي تاريخنا دأبــوا كسوسٍ كريهٍ للمفاخر ينحرونـــا
وفي آثارنا رفعوا فؤوســـاً وراحوا يحطمون ويهدمونا
وغالو في تعصبهم وأبدوا لنا البغضاء والحقد الدفينا

سيكولوجيا المنـظـر

البحث في سيكولوجيا النظرية الهادوية في اليمن يقتضي أولا التوقف عند سيكولوجيا المنظِّر الأول في اليمن نفسه، وأولُ منظّر ومؤسس هو يحيى حسين الرسي، القادم من جبال الرس في الحجاز، والذي كان على تواصل مع أبناء عمه في بلاد الجيل والديلم "عراق العجم"، هذا التواصل حول استعادة مزعوم حقهم الإلهي في الحكم، وقد وجدوا أنفسهم مشردين في الأصقاع بفعل ثوراتهم وانقلاباتهم الدائمة على الدول القائمة، سواء خلال العهد الأموي، أم العباسي.

يقول الدكتور علي الوردي: "من يدرسْ تاريخَ العَلويين يجدْهم ثوارًا من طراز عجيب. ولم يمر في تاريخ الإِسْلام جيلٌ دون أن يسمعَ النَّاسُ بخبر ثورة جَامحةٍ قَام بها رجلٌ من العلويين، أو ممن يَنتسب إليهم. ولا يخفى أنّ أو ل حرب داخليَّة نشبت بين المسلِميْن كانت في عهد علي. وقَدْ اتُّهِم عليٌ بتهمة سَفك الدماء مرارًا، حتى أن ابن عمه ونصيره ابن عبَّاس اتهمه مرة بهذه التهمة الشنيعة. قيل أن ابن عبَّاس أخذ شيئا من بيت المال يوم كان عَاملا لعلي على البَصرة، ثم هرب به؛ فكتب إليه عليٌ يلومه ويهدده ويخوفه من الله. فأجَابه ابنُ عبَّاس: إنه يؤثر أن يلقى الله وفي ذمته شيء من أموالِ المسلِميْن على أن يلقى الله وفي ذمته تلك الدماء التي سُفكت يوم الجمل، والتي سُفكت في صفين، والتي سُفكت في النهروان؛ فلما قرأ عليٌ هَذا الجواب اللاذع من ابن عمه، قَال متألما: وابن عباس لم يشاركنا في سَفك الدماء"؟![1]

١ . وعاظ السلاطين، الدكتور علي الوردي، دار كوفان للنشر، بيروت . لبنان، ط:٢، ١٩٩٥م، ص ٢٠٠.

مضيفا: "وقيل ـ أيضا ـ أن رجلا كان يتوضَّأ ذات يوم، فيصب على يديْه ماء كثيرا، فرآه عليٌ، وأخذ يلومُه على هَذا الإسْراف في صَب الماء، فرد عليه الرجل، قائلا: الإسْراف في صَب الماء خيرٌ من الإسْراف في سَفك دماء المسلمين"١.

ويقول المفكر محمد أحمد نعمان: "لقد قَدِمت طلائعُ الأئمَّة العَلويين إلى اليَمَنِ قبل أحد عَشر قرنا، تريدُ أن تنجو بنفسها من العذاب الشديد الذي كانت تلقاه في بغداد، وكانت القسوة في التعامل بين العبَّاسِيين والعَلويين قد بلغت حد رمي العَلويين أحياء في الآبار التي لا يجدون منها منفذا، أو بناء الجُدران عليهم أحيَاء، هم وأبناؤهم، فاتسمتْ نفسيَّاتُ من نجا منهم بالحقد المرير على الوجود، والقسْوة على كل من يقع في أيديهم ممن يعترض سَبيلهم"!٢

تلك المآسي التي تنامت إلى ذِهنِ يحيى حسين الرسي صَغيرًا شَكلت لديه نفسيَّة متأزمة وروحًا انتقاميَّة، صبغتْ صاحبَها بالقسْوة والحدة في التعامُل؛ وشكَّلت في نفوس العَلويين كافة نفسيَّة مريرة حاقدة على من سِواها، تعيش عقدة الانتقام من الخصم كيفما اتفق، وكلُّ النَّاس خُصومهم من وجهة نظرهم؛ لأنهم إمَّا ظالم لهم بصورة مباشرة، أو مقصر عن مُناصَرتهم لاسْتعادة ما يرونه حقًا إلهيًا لهم..!

وزد على طبيعة النفسية الحاقدة التي يحملها الرسي، أيضا قساوة الطبيعة بتضاريسها اللتين انعكستا بصورة مباشرة على تصرفات الرسي، ثم أبنائه من بعده، على الرغم من تغيرات الزمن نفسه، وعلى الرغم من كونهم قد تحولوا إلى ظالمين بعد أن كان أسلافهم الأوائل مظلومين حد ادعائهم.[٣]

---

١. نفسه. وقَدْ ذكر المسعودي في مروج الذهب عن أنصار علي في صفين أنهم كانوا يخاطبون أصحاب معاوية، وهم يرتجزون، قائلين: نحن ضربناكم على تنزيله واليوم نضربكم على تأويله. ومعنى هَذا ـ كما ذكر الوردي ـ: أن عليًا كان يحاربُ قريشًا في زمان النبي على تنزيل القرآن، وهو اليَوم يحاربهم على تأويل القرآن وتفسيره.

٢ . الفِكر والموقف، الأعمال الكاملة، "الأطراف المعنية في اليمن"، محمد أحمد نعمان، جمع وترتيب: لطفي فؤاد أحمد نعمان، ط:١، مارس، ٢٠٠١م، ٣٣٣

٣ ـ من وجهة نظر واقعية ليسوا مظلومين، كانوا انقلابيين، مثيري فتن، فاتخذت الدول القائمة إجراءاتها الصارمة من منطلق المسؤولية المنوطة بها.

والشيء بالشيء يُذكر.. حين لاقى اليهودُ من أشْكال الاستبداد وصنوف الأذى ما لاقوه أيام السَّبي البابلي الأول والثاني في بابل على يد الآشوريين "الوثنيين" خرج هَؤلاء اليهود أشدَّ عُنصريَّة وأكثر ادعاء للاصطفائيَّة السُّلالية، مزدرين غيرهم بصورة لم تكن معهودة عنهم من قبل، فكتبوا هُناك التلمود[1] في ظل ظروف نفسيَّة مُتأزمة وغير سَوية، نظرتْ إلى كل من عداهم نظرة احتقار وسُخرية وازدراء، فكانت الروحُ الانتقاميَّة لهم واضحة بين أسْطر هَذا الكتاب، لا لأن الآخرين فعْلا كما ذكروا، ولكنه حُب الانتقام، لا غير.

وقد ازدادت هَذِه الروحُ صَلابة في أوروبا إبان محاكم التفتيش في القرون الوسطى وما تلاها، حين اضطهدهم المسيحيون ونكلوا بهم؛ كونهم من وجهة نظر الديانة المسِيْحيَّة "قتلة المسِيح" الذي هو "الرب" في اعتقادهم، فعمَّق هَذا الاستبدادُ والقهر في نفوسهم الحقدَ أكثر، وخرج اليهودُ أشدَّ صَلابة من ذي قبل، وأكثر عنصريَّة، وقَدْ ورثوا حقد القرون الغَابرة، إضَافة إلى التنكيل والبغي الذي حصل لهم حينها، فكان التلمود هو الانعكاس النفسي المباشر، بكل ما في النَّفْس من كبتٍ وحقدٍ وسوء، لا العَقيدة السَّمَاويَّة المقدَّسَة. وصدق الشاعر حين قال:

ألا إنّ أخلاقَ الفتى كزمانه فمنهن بيضٌ في العيون وسودٌ

تلك المواقف بما تحتويه من احتقانات أخرى في اللاوعي جعلت الرسي وبنيه من بعده يتعاملون مع اليَمنيين بنفسية المنتقم، وأنانية المستعلي الذي ابتسم له الحظ في فترة من فترات التحول التَّاريْخي، خلال فترة حُكمهم، وإن لم يعلنوا ذلك صراحة؛ فكانت النَّظَرِيَّة الهَادَوِيَّة هِي الانعكاس النفسي المباشر بكل ما تحتقنُه النَّفسِيَّة المتأزمة من ثاراتٍ وحِقد وكبْت، حتى لقد اصْطبغت هَذِه النَّظَرِيَّةُ ذاتُها بالصِّبغة البُكائية عبر التاريخ، وما الجَلدُ واللطمُ يوم عَاشُورا للمحتفلين به إلا واحدٌ من أشْكال هَذِه البُكائيَّة وتمظهراتها؛ بل إنَّ رهَان قَضيَّتِهم الذي

---

١ . لليهود تلمودان اثنان، البابلي والفلسطيني. والتلمود البابلي هو مؤلف جماعي، يلخص الأفكار التشريعية والأسطورية التصويرية المركزية الخاصة بحكماء إسرائيل في فترة ما بعد اختتام المشنا، بداية القرْن الثالث، سواء أولئك الذين أقاموا في بابل أو المقيمين في أرض فلسطين. وهذه الأفكار كُتبت في الأساس كشروح لأقوال الأجيال السابقة. أما التلمود الفلسطيني فهو أقل أهمية بالنسبة لهم، وأدبياته . في أغلبها . متضمنة في التلمود البابلي.

يُناورن به هو المظلوميَّة التَّارِيْخِيَّة من لدُن عَلي بن أبي طالب وحتى اليوم، وفيما بين يوم علي واليوم آلاف الخُروجَات والحروب والثَّارات التي تسببت بها هذه الجَماعة، ولا تزال..

إنها نفسيَّة المنتقم قديمًا وحديثًا.. منتقم ممن يرى أن الآخر سَلبه حقَّه الإلهي في الحُكم..! ولا تزال إلى اليوم، وما يجري حاليًا هو عين ما جرى بالأمس، مع فارق أدوات الانتقام، على الرغم من كل المتغيرات والمستجدات..!

إن من يتأمل نصوص يحيى حسين الرسي، مستقرئا إيّاها من وجهة نظر سيكولوجية سيكتشف نفسًا متوحشة، وعقلية انتقامية، ليس من البشر فحسب؛ بل حتى من الحيوانات والكائنات، فبدا في شعره كما بدا في سلوكه كما لو أنه "داعش" القديمة، وربما أكثر من ذلك.

الشعر والشعور

قبل أن نخوض غمار البحث والتقصي في شعر الرسي من وجهة نظر نفسية، نتوقف أولا عند العلاقة بين الشعر والشعور.. الإبداع والنفس بشكل عام، كما تقررها مناهج البحث الأدبي.

الشعر اتجاه سيكولوجي، روحي، وجداني، يتشارك في مفرداته العقل الواعي مع العقل الباطن على حد سواء. يعيش الشاعر لحظات الخيال والتخييل مشاهد مرسومة في الذهن، بناء على معطيات ثقافية مسبقة لديه، مستقاة من محيطه البيئي موروثه الخاص. الشاعر ينظم ما يعتمل في وجدانه من أحاسيس وتصورات وانفعالات تنعكس بصورة جلية على عمله الإبداعي، وإن حاول التملص من ذلك.

الشعر تفجيرٌ للعقد المكبوتة داخل النفس، لذا فإن الشعراء يتنفسون بقصائدهم أحيانا، هروبا من ضغط الواقع، كما يتنفس بها أيضا بعض القراء إذا ما لامس هذا الإبداع نفس مشاعرهم ووجداناتهم. ومن هنا كان التفاوت في الإعجاب بقصائد الشعر أو حتى الفن التشكيلي، فبعض الناس تلامس جروحهم بصورة مباشرة، فينظر لهذا العمل، كما لو أنه سيد الأعمال، فيما يراه آخر بأنه عملٌ سطحي، لا إبداع فيه. والحقيقة أن الأمر متعلق بملامسة هذا العمل لمشاعر وأحاسيس المتلقي.

الألفاظ أوعية المعاني كما يقول الجاحظ، والقلم ترجمان القلب؛ وبالتالي فلم يُسوّد عملٌ ما على الصفحات أو في بطون الكتب إلا وقد اعتمل داخل مخيلة الكاتب ووجدانه وأحاسيسه؛ بل ربما قد عاشه كاتبه عراكا داخليا عصيبا.

تعكس الحالةُ النفسيةُ ذاتَها على العمل الأدبي فيرى الناقدُ لهذا النص أو ذاك صورًا متحركة ومشاهد حية بين مسامات هذه الحروف، أو لكأن الحروف تكاد تنطق بذلك، موضحة حقائق اللحظة التي عاشها الأديب، كاتبا كان أم شاعرا، أم موسيقيا أم رساما.. إلخ.

ألا تعكس لنا هذه الأبيات الموقف السياسي للشريف الرضي، نقيب الطالبيين، تجاه العباسيين آنذاك[1]؟

ولم أدر أن الدهر يخفض أهله إذا سكنت فيهم نفوس الضراغم
وما العيش إلا فرحة إن هجرتها سطون على الدنيا بسطوة حازم
سأصبر حتى يعلم الدهر أنني ملكت به دفع الخطوب الهواجم
وآخذ ثأري من زمان تعرضتْ مغارمُه بيني وبين المغانم

بعد هذا الاستطراد، وقبل الشريف الرضي نعود إلى يحيى حسين الرسي، المنظر الأول للإمامة في اليمن، يقول:

الطعن أحلى عندنا من سلوة كر الجوامس حين طال ظماها
والروس تُحصد بالسيوف ألذ من بيضاء ناعمة تجر رداها
والسائلات من الدماء فواغرا عظمت فقسط الزيت لا يملاها
أشهى وأعجب من صبوح مدامة في القلب يظهر غيَّها ورداها
وجماجم القتلى لأرجل خيلنا في الكر تقرع فوقها وتطاها
والرُّمح في كفي كأن سنانه نجم المجرة لاح في أعلاها

هذه ليست قطعة من الشعر فحسب؛ بل لوحة فنية تحتوي عشرات المشاهد من العنف والإرهاب والقتل والتدمير، وهي ملاحم عاشها الشاعر عراكا نفسيا داخليا في اللاوعي،

---

١ ـ أبو الحسن، محمد بن الحسين بن موسى، ويلقب بالشريف الرضي (٣٥٩ هـ – ٤٠٦ هـ / ٩٦٩ – ١٠١٥م) شاعر وفقيه ولد في بغداد وتوفي فيها. عمل نقيباً للطالبيين حتى وفاته، وهو من جمع نهج البلاغة المنسوب لعلي بن أبي طالب.

متصورا فصولها ومشاهدها قبل أن ينقلها إلى العقل الواعي. ألم يقل سيجموند فرويد: "إن الصراع ينشأ من عملية الإبداع حيث أن القوى اللاشعورية التي تدفع بالإبداع هي موازية للقوى الشعورية التي تؤدي للإصابة بالعُصاب أو العقدة، أي أن القوى التي تدفع المبدع هي نفس الصراعات التي تدفع الأشخاص الآخرين إلى الحالة العُصابية، فالتفكير يستمد مادته من الأوهام المتقنة التي تنطلق بحريه تامة، فمثلا الأفكار التي ترتبط بأحلام اليقظة والطفولة.. فيكون الإبداع هو عملية انتقال من الخيال اللذة إلى الواقع".[1]

وهكذا عكس لنا الشاعر ـ وهو المنظر الأول ـ انطباعاته وأحاسيسه التي اختزلتها طفولته عقدا مكبوتة في هذا النص الشعري.

وذات الشعور أيضا الذي انتقل بالعدوى كما أشرنا سابقا إلى إمام بعده، يحمل ذات المشاعر، وذات التوجه، وهو أحمد بن سليمان، في نص آخر، لا يقل وحشية ورعبًا عن نص الرسي نفسه، يقول أحمد بن سليمان:

فمتى كسوت السَّيف من هام العدى علقا كساني هيبة وجلالا
والسَّيف يُغني المفلسين ويشبع ال... غرثى ويروي العاطشين زلالا
والسَّيف ينفع في الصَّديق وفي الذي عادى ويترك عزمه منهالا
والسَّيف يُسمع من به صمم إذا حكمته ويعلم الجهالا
والسَّيف ينفي لي تحكُّمه الأذى ولعزة ويُحصل الأموالا
والسَّيف يجمع لي إذا حكمته قوما يفيد معونة ونوالا
فلأؤيمن نساء قومٍ منهم ولأوتمن من العدا أطفالا
ولأطعمنَّ الطيرَ من أجسَادهم ولأكثرنَّ لجنْدي الأثقالا[2]

١ ـ

٢ . سيرة الإمام أحمد بن سليمان، سليمان بن يحي الثقفي، تحقيق: الدكتور عبدالغني محمد عبدالعاطي، عين للدراسات والبحوث الإنسانية، ط:١، ٢٠٠٢م، ٨٤.

ذات الفكرة نفسها انتقلت إلى السفاح عبدالله بن حمزة، وهو من كبار كرادلة النظرية الهادوية، وبنفس الشعور والعقدة النفسية الموبوءة بالاستعلاء والزهو، حين يقول ردا على الفقيه اليماني المجدد نشوان بن سعيد الحميري حين قرر أن الإمامة تصلح في أي إنسان انطبقت عليه شروط الإمامة/ الخلافة، قرشيًا كان أم غير قرشي، علويا أم غير علوي.

أمَّا الذي عند جدودي فيه فيقطعون لسْنه من فيه
ويُيتّمون ضحوة بنيـــــه إذ صَار حق الغير يدعيْه

وحق الغير المقصود به هنا هو الإمامة التي يعتبرونها من حقوقهم الخاصة التي لا ينازعهم فيها أحد..!

كما هو ذات الشعور ـ أيضا ـ وذات النفسية والعقلية التي جعلت من عالم كبير وأديب فذ، معاصر، هو العلامة أحمد بن محمد الشامي أن ينحو ذات المنحى، فيعلن هو من جهته في ملحمته الشهيرة: "دامغة الدوامغ" ما أسماه في عنوان جانبي: "يمين الثأر" قائلا:

وقائلةٍ وقد نفد اصطـبـــاري وكدتُ أذوب بالذكرى حنينا
أبكّي من مضى من أهل ودي وأستبكي ديـــار الناجعينا
وأرثي سادة سيقوا اعتباطـــاً إلـى ســـاح المنايا موثقينا
"ولم تُغسل جماجمهم بســدر ولكن في الدمـــــاء مرمّلينا"
"تظل الطير عاكفة عليـهـم وتنتزع الحـواجـب والعيونـا"
علام الدمع والحسرات هذي؟ فقلت: لكَم شفى دمعٌ حزينا!
ستسلو، قلت: لا أسلو دياري ستنسى قلت لن أنسى القطينا
عدمتُ الدمـع إن لم أنتزفـه دمـــا بعد اللواتي والذينـا
وظلت تأكل الحسرات قلبـي إذا لـــم أرْع حقهم المـصونـا
ولا أبقتْ لي الأيامُ خـلاً إذا سالمتُ خصمَهم الخؤونا
سأطلبُ ثأرهم حتى أراها بـــلاقع أو نعود محكمينا
ونشفي غلة ونميت ضغنًا ونستقضي المغارم والديونـا

***

سيعلم كل ختالٍ أثيـــــم بأنـا رغـــــم كل العالمينـــا
سنجعل من حصونهم قبورًا ونبني من قبورهم حُصونـــــا

كما أعلن أيضا أثناء الحرب الإمامية اليمنية منذ قيام ثورة ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢م حتى العام ١٩٧٠م، قائلا:

أخبروا "فيصل" والقصور العوالي أننا نخبة كـــــرام أشـاوس
سنعيد الإمامة للحكم يومـــا إن بثوب النبي أو بفكر ماركس
فإن خابت آمالنا بالحجاز ونجد فلنا إخوة كرام بـــفـــــارس[1]

"ولأن كل سُلطة ترتد في نهاية الأمر إلى فرد.. قائد.. زعيم.. ملك.. رئيس.. أو إلى أفراد: مجلس.. لجنة.. أو إلى جَمَاعَة أو جماعات: حزب.. جماعة.. طائفة.. قبيلة، فإن كل سُلطة تقوم على الأسَاس النفسي العقلي للفرد أو الأفراد أو الجماعة، أو الجَمَاعات الذين يمارسون السُّلطة؛ أي أن سيكولوجية سُلطة مُعينة هِي في حقيقة الأمر سَيكولوجية فرد، أو أفراد أو جَمَاعَة في السُّلطة . وهم في السُّلطة . وهَذا ما يكاد ينطبق بشكل كامل على الأنظمة الشُّمولية، وعلى أنظمة الحزب الواحد والتنظيم الواحد والرأي الواحد الذي لا يقبل الآخر؛ بل يَسعى جاهدا إلى إبعاده ونفيه".[2]

هذا ما ظهر من العقل الواعي لوحده، فما بالك ما خفي من العقل الباطن "اللاشعور"؟[3] ووفقا لفرويد فإنّ العقلَ البشري يشبه الجليدَ العائم في المياه القطبيّة؛ حيث يختفي منه تحت سطح الماء تسعة أعشاره، ولا يظهر منه للعيان سوى عشر واحد، ومعنى هذا أن الأجزاء

١ ـ انظر: شاهد على الحركة الوطنية، يحيى مصلح، دار عبادي للنشر، صنعاء، ط:١، ٢٠٠٩م، ١٦٤.
٢ ـ سيكولوجيا السلطة، سالم القمودي، مؤسسة الانتشار العربي، لندن . بيروت، ط:٢،٢٠٠٠م، ٣٥.
٣ ـ العقل الواعي هو المسؤول عن حياة الإنسان الشاعرة أو ما يمكن أن يُطلق عليه دائرة الشعور؛ أما العقل الباطن فيمثل حياة الإنسان اللاشاعرة أو ما يسمى وراء الشعور. ويرى البعض أن العقل الواعي يمثل حوالي ١٠٪ فقط من مجمل النشاط العقلي للإنسان؛ أما العقل الباطن فيستحوذ علي ال٩٠٪ الباقي.

المختفية من العقل هي التي تقرر سلوك الإنسان؛ أما الجزء الظاهر من العقل فليس سوى برقع يحاول الإنسان أن يغطيَ به سلوكه الشاذ.[1]

وبشكل عام.. يشعر الكيان الإمامي أنه في حرب مستمرة مع الشعب من حولهم؛ لذا فهو يستخطر كلَّ من عداه، وخاصة من لم يؤمن بفكره الكهنوتي البغيض، فهو عدو، يجب التخلص منه والقضاء عليه. وحين يرى هذا الكيان لهيب الغضب يتسعر من قبل الناس تجاههم سرعان ما يلجأ إلى محاولة خلق عدو وهمي للأمة، وهنا يصبح من الميسور إصدار مختلف أنواع الإشاعات بشكل مهوّل، ومبالغ فيه وفي أي وقت، وهذا أسلوب يستخدمه الديكتاتوريون والطغاة ـ وكل الأئمة طغاة ـ في الغالب؛ إذ يختلقون أمام الشعب عدوًا وهميًا وخطيرًا ليواروا سوءاتهم الشنيعة، وبين يدينا على سبيل المثال إيران اليوم، منذ أول يوم للثورة الخمينية جعلت من أمريكا "الشيطان الأكبر" حد تعبيرها، فقمعت الشعب باسم محاربة الشيطان الأكبر، كما فعل الطغاةُ من الأئمة في اليمن عبر تاريخهم، ولطالما قمَعَ الإمام يحيى ومن بعده نجله أحمد كلَّ ثائر أو معارض لهما، بحجة أنّ هؤلاء الناس عملاء الإنجليز، كما فعل المؤسس يحيى حسين الرسي حين قتل اليمنيين بدافع الحفاظ على الإسلام، كما يقرر ذلك في إحدى قصائده:

الخيلُ تشهد لي وكل مثقفٍ بالصبر والإبْلاء والإقـدام
حقًا ويشهدُ ذو الفقار بأنني أرويت حديه بـدم طُغـام
نهلا وعلا في المواقف كـلها طلبا بثأر الدين والإسْـلام
حتى تذكر ذو الفقار مواقفا من ذي المعالي السيد القمقام[2]

١ ـ انظر: الأحلام بين العلم والعقيدة، د. علي الوردي، دار كوفان للنشر، بيروت، لبنان، ط:٢، ١٩٩٤م، ١١٣.

٢ . سيرة الهَادي إلى الحَق يحيى بن الحسين، علي بن محمد عبدالله العلوي، تحقيق: الدكتور سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ط:٢، ١٩٨١م، والمثقف من أسْماء الرُمح.

يقول كولن ولسون: "إن أسوأ أنواع الجرائم لا يرتكبها الحمقى والأغبياء؛ بل يرتكبها المتحضرون الأذكياء، باتخاذهم قرارات يوفرون لها المبررات والدوافع الكافية"[١].

ويذكر المحلل النفسي "فاميك فولكان" في كتابه "الحاجة إلى الحلفاء والأعداء" أن الجماعات تحتاج أعداء تسقط عليهم ما في نفسها من عدوانية وشرور، وكيف أن الصراع مع الجماعات الخارجية التي نناصبها العداء يجسد في الواقع صراعنا النفسي الداخلي بين الخير والشر في نفوسنا؛ حيث نخرج ما في نفوسنا من شر، فنجده في الخارج بحيث يمكننا قتاله. وذلك ما يؤكده أيضا عالم النفس التحليلي فيلهو هارلي في حديثه عن الجذور النفسية التي يشتق منها العدو الذي نتعصب ضده، فحسب التفسير النفسي نقوم "نحن" بتحديد شرنا بنسبته إلى "أنتم"، وهكذا نجعل "أنتم" أي الآخر هو العدو، والإسقاط كعملية سيكولوجية فردية تأخذ طابعا جماعيا داخل جماعة "النحن" بحيث يكون العدو نتاجا مشتركا، يتشكل منا جميعا معا، وعلى هذا لا يكون ظاهرة ينجزها شخص واحد بمفرده..[٢]

نتذكر هنا ذلك التصريح الشهير للدبلوماسي الكسندر ارباتوف وكان حينها مستشارا للرئيس السوفيتي ميخائيل جورباتشوف الذي خاطب به الغرب بعد سقوط جدار برلين وانهيار المنظومة الشيوعية، قائلا: "سنقدم لكم أسوأ خدمة. سنحرمكم من العدو".[٣] وفعلا فقد الغربُ وفقدت أمريكا عدوها الخارجي الذي تتظاهر بالانشغال به؛ لكنها سرعان ما بحثت عن عدوٍ آخر، متمثلا في العراق، ثم الإرهاب، وفي حال انتهى موضوع الإرهاب أو انقضت صلاحية لعبته حتما سيخلق الأمريكان والغرب عدوا جديدا..!

وهكذا ارتكب الأئمة جرائم تاريخية بحق الشعب اليمني منذ المؤسس الأول وحتى اليوم، لا تزال أفكارهم الشيطانية تنخر في ثقافة الشعب كسُوسٍ خبيث المنبت، فيما دسائسُهم وفتنُهم قد وصلت إلى قاع المجتمع. وهكذا تصنع الإمامة الهادوية عدوها بيدها من خارج كيانها،

---

١ ـ التاريخ الإجرامي للجنس البشري، كولن ولسون، ترجمة: د. رفعت السيد علي، جماعة حوار الثقافية، القاهرة، ط:١، ٢٠٠١م، ٩.

٢ ـ أزمة الهوية والتعصب، د. هاني الجزار، سابق، ١١٣.

٣ ـ لماذا الحرب؟ سيجموند فرويد، البرت انشتاين، ترجمة: جهاد الشبيني، منشورات تكوين، الكويت، ط:١، ٢٠١٨م، ٢٠.

لتحافظ على تماسكها الداخلي، ولتوهم أتباعها أنها مستهدفة، لكونها حامية حمى الدين والقيم والفضائل..!

وعبر تاريخ الأيديولوجيات والعصبويات فلم توجد أيديولوجية عبر التاريخ بلا عدو، إنها تخلقه خلقا إذا لم يوجد على أرض الواقع للحفاظ على حياتها وعلى كيانها من التمزق أو الاحتراب الداخلي؛ ذلك أن كلَّ عنصر داخل أي جماعة هو رجل حرب بالطبع والتطبع، وبنزعة عدوانية، وهو على أهبة الاستعداد لتنفيذ كل ما يوكل إليه من مهام بلا نقاش أو اعتراض، وهو كذلك عنصرُ أمن داخل جماعته، يترقب الآخرين ويحلل سلوكهم وتصرفاتهم من منظور علاقته بجماعته. والحقيقة ليس بوسع أي هويّاتي/ عصبوي/ كياناتي إلا أن يكون كذلك، وإلا لما وجد أصلا ضمن هذه الجماعة أو تلك، فمن لم يتفاعل مع جهازه الكياني/ العصبوي يصبح منبوذا خارج إطار اللعبة، تلاحقه تهمة الفشل أو الخيانة أو السماجة. وكلما كان العنصرُ أكثر تعصبًا وحديّة وتفاعلا كان أقرب إلى روح الجماعة، وأيضا محل تقديرهم.

فوبيا النظرية الهادوية

النظرية الهادوية كغيرها من النظريات الأحادية التي لا تقبلُ بغيرها، كاليسارية الستالينيّة والنازية والفاشية والصهيونية والخمينية، جميعها بُنِيَ نظرية صلدة، كل منها منكفئة على نفسها، ومتحيزة لذاتها، تفسر قوانين الحياة وحركة الكون وفلسفات العلوم بناء على رؤاها ومعتقداتها الخاصة. ومن هنا تتوجسُ من الغير، وتخاف منه، وتتعامل معه بارتياب وحذر شديد. ففي البنية الذهنيّة للنظرية الهادوية أن كلَّ من عداها هو عدو، وعلى أحسن الأحوال خصم، يجب التخلص منه؛ لذا كان ذلك التعامل الحدي والمتطرف من وقت مبكر مع كل صوت معارضٍ أو يُتوهم أنه معارض، مهما كانت سلمية هذه المعارضة أو مدنيتها، مع أن المعارضة هي الوجه الآخر للحكم، وهي تعمل بطريقة غير مباشرة على تسوية أي خلل أو اعوجاج في مسيرة النظام القائم، وخاصة اليوم في ظل المفاهيم الحديثة للأنظمة السياسية القائمة. و:

إذا ساءت فعالُ المرء ساءت ظنونه وصدق كل ما يعتاده من توهم

الفوبيا أو الرهاب ـ كما في ويكي ـ هو مرضٌ نفسيُ يُعرف بأنه خوف متواصل من مواقف أو نشاطات معينة عند حدوثها أو مجرد التفكير فيها أو أجسام معينة أو أشخاص عند رؤيتها أو التفكير فيها. هذا الخوف الشديد والمتواصل يجعل الشخص المصاب عادة يعيش في ضيق وضجر لمعرفته بهذا النقص. ويكون المريض غالبًا مدركا تمامًا بأن الخوف الذي يصيبه غير منطقي، ولكنه لا يستطيع التخلص منه بدون الخضوع للعلاج النفسي لدى طبيب متخصص.

وبقدر ما تنطبق هذه الحالة على الأشخاص تنطبق أيضا على الكيانات والجماعات، ومنها الجماعات الأحادية التي تستخطرُ كل كائن، وتنظر إليه بريبة وشك. وتأتي الهادوية

على رأس قائمة هذه الجماعات؛ ذلك أن استخطارها لما عداها هو استحضار ضمني لمساوئها الداخلية، وهو انعكاس مباشر لما يعتمل داخل بنيتها الفكرية.

فوبيا الإسماعيلية

كانت الإسماعيلة في اليمن أولى الجماعات المنظمة التي أقضت مضجع الإمامة الهادوية، بحكم تواجدها من قبل مجيء الهادي، وإن ظلت كامنة حتى وقت متأخر من حياة يحيى حسين الرسي نفسه. وكانت منافسًا سياسيا يتخلق، بشعبية زاحفة، بحكم المكانة السياسية والروحية التي تبوأها كلٌ من ابن حوشب وعلي بن الفضل قبل أن يعلنا دعوتهما، ابن حوشب من "عدن لاعة" وعلي بن الفضل من "سرو يافع"، وقيل في جيشان، وفق تكتيك مسبق اتفقا عليه في ساحل "غلافقة" من تهامة عقب عودتهما معًا من العراق.

وقد شنت الهادوية الإمامية منذ السنوات الأخيرة لحكم يحيى الرسي، مرورا بأبنائه من بعده، وحتى اليوم حملاتٍ شعواء على الإسماعيلية، وعلى زعيمها علي بن الفضل الذي استغل الدعوة الإسماعيلية الداعمة لدعاتها آنذاك، وذلك لاستعادة حكم اليمن من قبل أبنائه، وهو يعيش حالة من التمزق والشتات؛ خاصة وقد أصبح له من النفوذ والسيطرة ما له "حتى قام وهو اليمني القحطاني الطموح بإظهار ما أضمره، وإعلان ما أخفاه في صدره من رغبة في التفرد بحكم اليمن والاستقلال عن كل تبعية داخلية لابن حوشب، أو خارجية للإمام المهدي، ولو أنه كان قد بايع للإمام المستور الحسين بن أحمد ولولده المهدي من بعده، وحقق ما وصل إليه بفضل قيامه بالأمر باسمه. وقد ألصق به المؤرخون تهمة الزندقة والخروج على مذاهب الإسلام وإباحة المحرمات وادعاء النبوة، وهي التهم التي اعتاد المؤرخون نسبتها إلى كل مخالف وخارج على النظام.."[1].

١ ـ ابن حوشب والحركة الفاطمية في اليمن، سيف الدين القصير، دار الينابيع، دمشق، د. ت، ٨٠.

وقد ظلت الإسماعيلية هي الشغل الشاغل للإمامة الهادوية حتى بعد قمعها وتلاشي دعوتها في عموم اليمن. وكان من خرج على ظلم الإمامة أو علا صوته أسقطوا عليه تهمة الإسماعيلية والتي أسقطوا عليه كل قبح وشين، منذ ذلك الحين وحتى اليوم. وقد نفى الإمام المهدي محمد بن المهدي أحمد، المعروف بصاحب المواهب قبائل من ذو خليل من همدان إلى الهند والصين عام ١١٠١هـ، الموافق ١٦٨٩م،[١] وكانوا إسماعيلية.

فوبيا المطرفية

ما أن تلاشت الدعوة الإسماعيلية حتى كانت المطرفية قد تبازغ نجمها وذاع صيتها في القرن السادس الهجري، مع أن المطرفية جماعة علمية فلسفية بالمقام الأول، وليست سياسية، غير أنها تبنت في أدبياتها الفكرية العدول عن شرط "البطنين" في الإمامة، وقالوا بأن الإمامة تصلح في كل من توافرت فيه شروط الحكم، قحطانيا كان أم عدنانيا. وهذا يمثل تهديدا كبيرا وصارخا للنظرية الهادوية القائمة على هذا الأساس، كما تتخيل هذه الجماعة. وزادت حساسية الهادوية الكهنوتية تجاه المطرفية من كون المطرفية قد نشأت في نفس البيئة التي تعتبرها الهادوية حاضنتها الأم وحاميتها الرئيسية. وهو تهديد من الداخل له تأثيره الكبير لاحقا، فتعاملت معها بحدية مفرطة، وقمعتها قمعا متوحشا، مبالغا فيه، على الرغم من كون المطرفية جماعة علمية بالمقام الأول كما أسلفنا، إلا أنها مع هذا ظلت "فوبيا" قائمة تقض مضاجع الهادوية ليل نهار وظلت شغلهم الشاغل حتى بعد تلاشيها، كما ظلت من قبلها الإسماعيليّة كذلك.

١ ـ اليمن في ظل حكم الإمام المهدي، محمد علي دبي الشهاري، ٣٥٦.

فوبيا اليهودية

الطائفة اليهودية مكون كبير من المكونات الاجتماعية والدينية في اليمن من قبل أن تعرف الهادوية الإمامية أرض اليمن، ومن قبل الإسلام كذلك. ومما يُحمد لليهود قديما وحديثا تمسكهم بهويتهم اليمنية، واعتزازهم باليمن وبحضارته وتاريخه كأي يمني، بصرف النظر عن عقديته، فيما الهادوية الإمامية تزردي اليمنَ حضارة وتاريخا ومجدًا سامقًا، ضاربًا بجذوره في أعماق التاريخ.

وقد ظلت الإمامة على الدوام ـ وخاصة الإمامة القاسمية ـ ترفع عقيرتها ضد ما تسميه مفاسد اليهود، وبين الفينة والأخرى تشردهم وتنكل بهم شرد تنكيل، تارة بإجلائهم عن مدينة صنعاء، وتارة بمصادرة أموالهم وجميع أملاكهم للإمام وحاشيته، بتهم باطلة في غالبها. علما بأن اليهود قد أسهموا من وقت مبكر إسهاما إيجابيا وخلاقا في الفنون الشعبية وفي التجارة والصياغة والصرافة وفي مختلف الجوانب، فكان لهم إسهام مدني وحضاري بديع، باعتبارهم أهل صنعة، وأهل سلم وتمدن، ومع هذا فقد ظلوا هدفا للإمامة بين الحين والحين ينكلون بهم ويشردونهم ويصادرون أموالهم. ناهيك عن المعاملة المزرية بحقهم في الظروف الطبيعية.

وقد رأينا مؤخرا بداية تمدد الحوثي كيف بدأ بيهود آل سالم في صعدة، حيث نكل بهم، وصادر ديارهم وأموالهم، وشردهم شرد تشريد من ديارهم في صعدة إلى صنعاء، فيما نفى البعض الآخر إلى إسرائيل. وهي ثقافة تاريخية عمدت عليها الإمامة من قديم الزمن وإلى اليوم، مع أن يهود آل سالم يمنيون مسالمون، مثلهم مثل أي مكون آخر، ولم يصدر منهم ما يخالف القانون اليمني ولا حتى الشريعة الإسلامية؛ بل إن نفيهم وتشريدهم بتلك الطريقة فعلٌ مخالف للشريعة الإسلامية.

فوبيا الصوفية

الصوفية من الفرق الإسلامية في المجتمع اليمني من وقت مبكر، وهي فرقة روحانية، ولا تنشغل بأمور السياسة عادة، إلا نادرا، يعيشون زاهدين، متقشفين، متلذذين بهذه الحياة التي يختارونها لأنفسهم، معتبرين ذلك كسرا لشهوات النفس وأطماع الحياة الدنيا. ويغلب على تعاملهم الرد بالتي هي أحسن مهما كانت حجم الإساءة إليهم.

ومع هذا فلم تسلم هذه الجماعة من شرور الكيان الإمامي البغيض؛ فقَدْ قَام الإمَام شرف الدين بقتل بعض فقهاء الصوفية وذلك بسبب معتقداتهم وأفكارهم، كما حصل مع الفقيه حسن بن علي الجدر الذي قتله الإمَام شرف الدين، وعاملهم أيضا معاملة المرتدين عن دينهم. والواقع أن ذلك في حقيقته ما هو إلا خوف من أن يستفرد عليه بشرف الزعامة الدينية، لأن كثيرًا من فقهاء الصوفية قد مال النَّاس إليهم والتفوا حولهم، كلما تغول عليهم ظلم الأئمة أكثر.

وإلى جانب هَؤلاء فقد كفَّر الإمَامُ القاسمُ بن محمد الصوفيَّةَ واسْتحلَّ دماءهم، كما ورد في واحدة من رسائله، يقول عنهم، محرضا النَّاس عليهم: ".. فالواجبُ على المسلِميْن اسْتباحة دمائهم وأموالهم؛ لأنهم كُفار مُشركون؛ بل شركهم أعْظم وأكثر؛ لأن المشركين الذين كان ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ يجاهدهم يقرون بالله ويجعلون له شُركاء وهِي الأصْنام، وهؤلاء لم يجعلوا إلههم إلا الحِسَان من النِّسَاء والمردان.."[1]

وحين غزا المتوكل على الله إسماعيل بلاد حضرموت نكل بمدارس الصوفية ومنع حِلقَ الذكر التي أَلِفها الناس فيها، وشرّد رجالها.

---

١ ـ النبذة المشيرة، سابق، ٣١.

وفي عهد يحيى حميدالدين عمد بواسطة نجله السيف أحمد إلى هدم قباب وأضْرحَة أئمة ومشائخ الصُّوفية ورجال الدين في اليَمَنِ الأسْفَلِ كامِلا، وذلك بحجَّة محاربة البدع والخرافات والشَّعبذات، في الوقت الذي تمتلئ صَنعاء وما حولها بالعديد من الأضْرحة والمراقد الخاصَّة بالأئمة وغيرهم من آل البيت من لدن الإمَامِ الهَادي حتى والده، والناسُ هناك يزورونها ويتبركون بها إلى اليوم، مع العلم أن الإمَام عبدالله بن حمزة كان قد كتب رسَالَة إلى أهل قرية "لصف" في "نهم" شرق صَنعاء، يهددهم فيها بنقل رفات أخيه المدفون هُناك إن لم يجعلوا له ضريحًا مزورا. وقَدْ كان قبره قبل ذلك اليَوم مهجورا، كما أمر الإمَامُ المنصور محمد بن يحيى حميد الدين أهل أرحب ببناء قبة وتابوت على قبر الإمَام أحمد بن هَاشِم الويسي، مهددًا إياهم بنقل رُفاته إلى مَكان آخر إن لم يفعلوا.!!

أيضًا.. أقدم السَّيف أحمد حميد الدين نهاية العشرينيَّات من القَرْن الماضي، على هدم ضريح الفقيه الصالح أحمد بن موسى بن عُجيل، في مَدينة بيت الفقيه بتهامة الذي تنتسب له المدينة، وذلك عقب هزيمة الزرانيق في الحرب الشهيرة بينهم وبين أبيه، وقَدْ كان هو قائد جيش والده.

كما قَام أيضا عام ١٩٤٣م بهدم ضَريح الولي الصَّالح والزاهد أحمد بن علوان في يفرس بتعز، وتسويته بالأرض، ونقل رفاته إلى مكان مجهول، تحت حُجة محاربة البِدعة، وفي ذلك قال الشاعر إبراهيم الحضراني:

أضريح أكرم ناسكٍ وتـقـي نبشته كف الماجن البدعي؟
من بين آلاف القبور نبشتَه بغيًا بدون مُسوغٍ شـــرعي
نبشُ القبور رذيلةٌ وفضيحةٌ حتـــى لدى البوذي والزنجي
ما ذاك إلا أنه من مَعـشـرٍ سُنيَّة في معـــشـــرٍ سُـني

فوبيا البانيان

إلى جانب تشريد الإمامة وتهجيرهم لليهود بعد مصادرة ممتلكاتهم خلال الحكم القاسمي كان الهنود الملقبين بالبانيان يعملون في مختلف الأسواق اليمنية في تجارة الجملة وفي تجارة الذهب وفي الصناعة والاستيراد، وتركز وجودهم أكثر في الموانئ اليمنية القديمة، إلى جانب اشتغالهم بالترجمة، وكانوا محل احترام العامة والخاصة من الناس، لأمانتهم التي اشتهروا بها وبراعتهم العملية في التجارة والحسابات المالية، كما أشار إلى ذلك الرحالة الدنماركي إلى اليمن كارستن نيبور في كتابه "من كوبنهاجن إلى صنعاء"، وساعد هذا الاندماج أن أغلب هؤلاء البانيان مسلمون من رعايا الإمبراطورية المغولية التي حكمت الهند، وكانت على علاقة طيبة بمختلف البلدان الإسلامية، وخاصة في عهد الامبراطور "أورنك زيب"، عدا الإمامة القاسمية فقد ترصدت أحوالهم وحين رأتهم على أحسن حال صادرت ممتلكاتهم وأجلتهم عن اليمن نهائيا.[1]

ورغم أن اليهود بدرجة رئيسية، ثم البانيان كانوا يمثلون دعامة اقتصادية كبيرة للبلاد، وإضافة نوعية إلا أن الإمامة الهادوية لم تأبه لذلك، فقد نكلت بهم وشردتهم ونفتهم، ومع هذا الفعل تهاوت أسواق اقتصادية وغادر الكثير سوق العمل، مُلتحقين بالعُكفة، وقد كانوا عمالا أو فنيين لدى اليهود أو البانيان، باعتبار هؤلاء أرباب مهن، ومهن متميزة أيضا، في مختلف مدن اليمن. وهو ما لا يهم الإمامة أصلا، فهي لا تكترث للوطن ولا للمواطنين، بقدر ما تكترث لبقائها هي فقط على أي نحو كان.

---

١ ـ انظر: اليمن في ظل حكم الإمام المهدي، سابق، ٣٥٦. وقد ذكر الدكتور مصطفى الشكعة أن تاجرا هنديا كان يقيم في الحديدة، ففكر بفتح سينما هناك، فاستأذن الوالي إلا أن الوالي لم يستطع البت في ذلك، وأرسله إلى الإمَام بصنعاء، وشد الهندي الرحال إلى صنعاء، وبعد انتظار ثلاثين يوما في صَنعاء استطاع مقابلة الإمام، وعندما طرح عليه أمر فتح سينما، أجابه الإمَام بأن له عليه ثلاثة شروط، أولها: ألا تُعرض السينما أفلاما خليعة، والثاني: ألا تفتح في وقت الصلاة، وثالثها: أن يكون الدخول إليها مجانا!! فصُعق الهندي، وأقسم ألا يقيم باليَمَنِ بعد ذلك اليَوم يومًا واحدًا، وفعلا فقد عاد إلى الحديدة ومنها إلى الهند مباشرة!! انظر: مغامرات مصري في مجاهل اليمن، الدكتور مصطفى الشكعة، مركز الدراسات والبحوث اليمني، ط:١، ١٩٨٥م، ٨٦.

فوبيا الوهابيين

الوهابيون[1] أو السلفيون جماعة علمية تقليدية مقيمة في دماج من صعدة منذ سنين طويلة[2]، وهم طلاب علم متوافدين من جميع الأصقاع، يشتغلون بالقرآن الكريم وعلومه، والحديث النبوي، ولا يتدخلون في الشؤون السياسية، وفي الغالب هم موالون لمن غلب في الحكم، ولا يقولون بالخروج على أحد، حتى وإن خالف مذهبهم، فهم مسالمون، وينبذون الحروب، ومع هذا فقد رأوا فيهم شبحًا يهددهم على قلتهم، وعلى ضعف إمكانياتهم، وعلى انزوائهم على أنفسهم، وعلاقتهم الاجتماعية مع بقية الجماعات والأحزاب والتيارات تكاد تكون منعدمة، وبالتالي فهم لا يمثلون أي خطر سياسي مطلقا، غير أن فوبيا النظرية الهادوية جعلت منهم بعبعا كبيرا، وخطرا مهولا يترصدهم، فعملوا على إجلائهم وتشريدهم كما فعلوا مع يهود آل سالم، وكما فعل أجدادهم مع بقية الطوائف والجماعات الأخرى، ومن شابه أباه فما ظلم..!

فوبيا البهائية

البهائية أقلية يمنية لا تكاد تُذكر، تواجدت في اليمن قبل عقود طويلة في كل من عدن والمكلا والمخا، ثم صنعاء مؤخرا، وهي جماعة سلمية، مندمجة في المجتمع بصورة طبيعية، وقد رأت فيهم الإمامة الحوثية خطرا يهددهم، والأمر لا يعدو أن يكون "رُهابًا" لا أكثر، لأقليتهم ولسلميتهم ولمحدودية تواجدهم، ناهيك عن أنهم لا يمتلكون برنامجا سياسيا مناوئا لأحد.

---

١ ـ نسبة إلى محمد بن عبدالوهاب النجدي، زعيم الحركة الدينية الإصلاحية في نجد، في القرن الثامن عشر الميلادي.
٢ ـ تأسس مركز دماج السلفي في صعدة على يد الشيخ السلفي الراحل مقبل بن هادي الوادعي، سنة ١٩٧٩م.

ومؤخرا عمل الحوثيون على إجلائهم إلى خارج البلاد، كما فعلوا مع اليهود من قبل، وكما فعل مع طلبة العلم السلفيين غير اليمنيين في صعدة.

إن هذا الرهاب والخواف الذي يتملكهم اليوم من جماعة مجهرية كيهود آل سالم أو سلفيي دماج أو البهائيين أو غيرهم، هو ذات الرهاب والخواف الذي تملك إمامهم الأول أحمد بن سليمان في القرن السادس الهجري حين أعلن شعرا:

إذا ما خفتَ في بلد عـــــدوا فخالفْ ظنه في كل فـــن
وخف من كنتَ تأمنه احتياطا وظن بمن تعادي شرّ ظن

إن هذين البيتين بقدر ما يحتويان على تكتيك سياسي قد يبدو بارعًا وذكيًا، بقدر ما يكشف أيضًا حجم الرهاب النفسي والخواف الذي يسكن هذه الجماعة نفسيا من الداخل قديما وحديثا، فكل مُغاير أو معارض لهم هو في نظرهم عدو يجب استئصاله وإبعاده والقضاء عليه.

خاتمة

إن الحرب العسكرية بطبيعتها ليست إلا الوسيلة الجادة للهدف الجاد، وهو التنمية بمفهومها الشامل، وصولا إلى الاستقرار؛ لأن الحرب ليست هدفا في حد ذاتها؛ وكما يُقال: ليس القائد العظيم من ينتصر في مئة معركة؛ بل القائد الذي لا يحتاج إلى معركة واحدة أصلا حتى ينتصر، ومن الحكمة أن تُفشل قرار الحرب لا أن تنتصر في الحرب.

وحقيقة فإن أصل خلافنا ومشكلاتنا القديمة والحديثة مع الكيان الإمامي الهادوي في اليمن هي مشكلة ثقافية فكرية قبل أن تكون عسكرية؛ بل ما المشكلة العسكريّة إلا من مخرجات ذلك التعليم المغشوش والثقافة الخاطئة التي تلقاها الناشئة صغارا في الكتاتيب والأربطة التابعة لهم، بعيدا عن التعليم الرسمي، وحين شبوا كبارا حملوا السلاح على غيرهم، اعتقادا منهم أنهم من يمتلكون الحقيقة المطلقة وحدهم، فيما الآخر على خطأٍ وخطأٍ محض. وهنا أصل الكارثة وأس المشكلة وبيت الداء.

وقد تكون ثمة حلول كثيرة لمواجهة هذا الفكر المشوه والثقافة المزورة التي توارثها هذا الكيان خلفا عن سلف، ولكن أهمها هو التعليم؛ بل يكاد يكون هو الأول والأخير. فلا شيء يذيب التعصب وحماقة الجهل غير التعليم، المستند إلى استراتيجية وطنية شاملة تعالج أصل الداء وجذر المشكلات.

التعليم هو السلاح الأمضى الذي تدمر به خصمك وتقضي عليه تماما. وكم كان الملياردير اليهودي "كوزيمو دي مديتشي" في فلورنسا حكيمًا وسياسيًا بارعًا؛ بل واستراتيجيًا حين عمل على تأهيل خصومه المسيحيين المتطرفين بالتعليم، وذلك للحد من تغول التطرف الكنسي الذي أفضى إلى خلق جيل متطرف ومشبع بالكراهية من المسيحيين، ضد اليهود والمسلمين في أوروبا كلها؟!!فغيَّر بالتعليم والفن جيل عصره تماما، واستمرت أسرته كذلك إلى اليوم، ويكفي أن أستاذ الفن التشكيلي الأول في أوروبا "مايكل أنجلو" كان من مقربيه،

وممن دَعَمهم وشجَّعهم وتبنى مشاريعهم الفنية والثقافية. وللعلم فقد أسس "مدتشي" أولَ وأكبرَ مكتبةٍ مسيحية ثقافية في أوروبا، وجلب إليها المخطوطات من كافة أنحاء أوروبا..!

لقد عمل الكيانُ الإمامي من وقت مبكر على تلقين نظريتهم للناشئة والعامة من الناس، ووظفوا كل الإمكانيات والوسائل في سبيلها، فكوّنوا بها روحًا جماعية، بخصائص نفسية موحدة، لمواجهة خصومهم، ولا سبيل للجمهورية إلا باتباع نفس الأسلوب، من منطلق حارب عدوك بالسلاح الذي يخافه هو لا بالسلاح الذي تخافه أنت، وذلك بأن تكون الجمهورية عقيدة في وجدان كل يمني، فالفكرة لا تصبح فعالة إلا إذا هبطت إلى روح الجماعة، وتشربتها العامة من الناس عقيدة راسخة في الوجدان، وثقافة حية في الضمير، فيصبح هؤلاء الناس هم حراس العقيدة، وحماة الثقافة، وهم ضمانتها القومية للأبد.

هذه إشارةٌ عجلى، تفتح الأفق فقط بلا تفاصيل. وللمرحلة القادمة أحكامها الخاصة التي ستقررُ كلمة الفصل.

قائمة المصادر والمراجع

- ابن حوشب والحركة الفاطمية في اليمن، سيف الدين القصير، دار الينابيع، دمشق، د. ت.
- الأحلام بين العلم والعقيدة، د. علي الوردي، دار كوفان للنشر، بيروت، لبنان، ط:٢، ١٩٩٤م.
- أدب الطلب ومنتهى الإرب، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، تحقيق: عبدالله بن يحيى السريحي، دار الكتب العلمية، ط:١، لبنان، ٢٠٠٨م.
- أزمة الهوية والتعصب، د. هاني الجزار، هلا للنشر والتوزيع، الجيزة، ط:١، ٢٠١١م.
- اشتات، عبدالله البردوني، ط:٢، ١٩٩٥م.
- الإمامة وخطرها على وحدة اليمن، محمد محمود الزبيري، إصدارات وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء، ٢٠٠٤م.
- الأوضاع السياسية الداخلية لليمن في النصف الأول من القَرْن التاسع عشر، صادق محمد الصفواني، وزارة الثقافة والسياحة، ط:١، ٢٠٠٤م.
- البداية والنهاية، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تحقيق: علي شيري، الناشر: دار إحياء التراث العربي، ط:١، ١٩٨٨م.
- بهجة الزمن في تاريخ اليمن، يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد، تحقيق: د. أمة الغفور عبد الرحمن علي الأمير، مؤسسة الإمَام زيْد بن علي الثقافية، ط:١، ٢٠٠٨م.
- التاريخ الإجرامي للجنس البشري، كولن ولسون، ترجمة: د. رفعت السيد علي، جماعة حوار الثقافية، القاهرة، ط:١، ٢٠٠١م.
- تاريخ اليمن الحديث، الدكتور حسين عبدالله العمري، ط:١، ١٩٨٤م.
- تاريخ اليَمَن الفكري في العَصر العَبَّاسي الأول، أحمد محمد الشَّامي، دار النفائس، منشورات العصر الحديث، بيروت، ط:١، ١٩٨٧م.

- تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن في حوادث وتاريخ اليمن، عبدالواسع بن يحيى الواسعي، مكتبة اليمن الكبرى، صنعاء، ط:٢، ١٩٩١م.
- تكوين اليمن الحديث، سيد مصطفى سالم، دار الأمين للنشر والتوزيع، ط:٤، ط:٤، ١٩٩٣م.
- حرب الشائعات.. الإمامة الهادوية في اليمن تاريخ من الافتراء، د. ثابت الأحمدي، دار النهضة اليعربية، ط:١، ٢٠٢٠م.
- الحزب الهاشمي، سيد قمني، مكتبة دار الندوة الإلكترونية، ٢٤. نسخة بي دي اف. متوفرة على النت.
- حياة الأمير على الوزير، أحمد بن محمد الوزير، منشورات العَصر الحديث، ١٩٨٧م.
- روح الثورات والثورة الفرنسية، جوستاف لوبون، ترجمة: عادل زعيتر، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة.
- سوسيولوجيا العنف والإرهاب، إبراهيم الحيدري، دار الساقي، بيروت، ط:١، ٢٠١٥م.
- سيرة الإمَام أحمد بن سليمان، سليمان بن يحي الثقفي، تحقيق: الدكتور عبدالغني محمد عبدالعاطي، عين للدراسات والبحوث الإنسانية، ط:١، ٢٠٠٢م.
- سيرة الهَادي إلى الحَق يحيى بن الحسين، علي بن محمد عبدالله العلوي، تحقيق: الدكتور سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ط:٢، ١٩٨١م.
- سيكولوجيا السلطة، سالم القمودي، مؤسسة الانتشار العربي، لندن . بيروت، ط:٢٠٠٠،٢م.
- سيكولوجية العدوان، خليل قطب أبو قورة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ١٩٦٦م.
- شاهد على الحركة الوطنية، يحيى مصلح، دار عبادي للنشر، صنعاء، ط:١، ٢٠٠٩م.
- فترة الفوضى وعودة الأتراك إلى صنعاء، د. حسين العمري، دار الفكر، دار الحكمة اليمانية، ط:١ ١٩٨٦م.
- الفرار إلى جهنم، معمر القذافي، الهيئة المصرية العَامَّة للكتاب، القاهرة، ط:٢، ١٩٩٦م.
- الفِكر والموقف، الأعمال الكاملة، "الأطراف المعنية في اليمن"، محمد أحمد نعمان، جمع وترتيب: لطفي فؤاد أحمد نعمان، ط:١، مارس، ٢٠٠١م.

- لماذا الحرب؟ سيجموند فرويد، البرت انشتاين، ترجمة: جهاد الشبيني، منشورات تكوين، الكويت، ط:١، ٢٠١٨م.
- مجموع مكاتبات الإمَام عبدالله بن حمزة، تحقيق: عبدالسلام بن عباس الوجيه، مؤسسة الإمَام زيْد بن علي الثقافية، ط:١، ٢٠٠٨م.
- مذكرات الرئيس القاضي عبدالرحمن الإرياني، ط:١، ٢٠١٣م.
- مغامرات مصري في مجاهل اليمن، الدكتور مصطفى الشكعة، مركز الدراسات والبحوث اليمني، ط:١، ١٩٨٥م.
- مهزلة العقل البشري، د. علي الوردي، دار كوفان للنشر، بيروت، لبنان، ط:٢، ١٩٩٤م.
- المؤمن الصادق، إيريك هوفر، ترجمة: د. غازي بن عبدالرحمن القصيبي، هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، ط:١، ٢٠١٠م.
- الهادوية بين النظرية السياسية والعقيدة الإلهية، ثابت الأحمدي، وزارة الثقافة، مؤسسة أروقة، ط:١، ٢٠١٨م.
- هجر العلم ومعاقله في اليمن، القاضي إسماعيل بن علي الأكوع، دار الفِكر المعاصر، بيروت، لبنان، دار الفكر، دمشق، سورية، ط:١، ١٩٩٥م.
- وعاظ السلاطين، الدكتور علي الوردي، دار كوفان للنشر، بيروت ـ لبنان، ط:٢، ٩١٩٩٥م.
- اليمن الجمهوري، عبدالله البردوني، د. د. ط:١، ١٩٨٣م.
- اليمن في ظل حكم الإمَام المهدي، المعروف بصاحب المواهب. د. محمد علي دبي الشهاري، الجيل الجديد، ط:١، ٢٠٠٩م.

مواقع الكترونية

ـ موضوع كم، على الرابط:
https://mawdoo3.com/%D9%85%D9%81%D9%87%D9%88%D9%85_%D8%A7%D9%84%D8%AF%D8%A7%D9%81%D8%B9%D9%8A%D8%A9_%D9%81%D9%8A_%D8%B9%D9%84%D9%85_%D8%A7%D9%84%D9%86%D9%81%D8%B3

عادل الأحمدي، مقالة بحثية على صفحته الإلكترونية وموقع نشوان نيوز، على الرابط:
https://nashwannews.com/67133

تم بحمد الله؛